# أدب الدنيا والدين

( تأليف )

العالم العلامة الحبر الفهامة الإمام الكبير
المحقق الشهير أقضي القضاة أبى الحسن على
ابن محمد بن حبيب البصرى الماوردى
رحمه الله تعالى آمين

يطلب من
محمود على صبيح
صاحب المكتبة المحمودية التجارية
بميدان الجامع الأزهر الشريف بمصر

المطبعة المحمودية التجارية بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قال القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري رحمه الله تعالى ﴾

الحمد لله ذوي الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والانبياء وعلى آله وأصحابه الاتقياء ( أما بعد ) فان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته وأعظم الامور خطرا وقدرا واعمها نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والاولى لانه باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة وقد توخيت بهذا الكتاب الاشارة الى آدابهما وتفصيل ما أجمل من أحوالهما على أعدل الامرين من ايجاز وبسط اجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الادباء فلا ينبو عن فهم ولا يدق في وهم مستشهدا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه ثم متبعا ذلك بامثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لان القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ان القلوب تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرائف الحكمة فكان هذا الاسلوب يحب التنقل في المطلوب من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى ينتقل كثيرا في داره من مكان الى مكان وينشد قول أبي العتاهية رحمه الله تعالى

لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة ... الا التنقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب ( الباب الاول ) في فضل العقل وذم الهوى ( الباب الثاني ) في أدب العلم ( الباب الثالث ) في أدب الدين ( الباب الرابع ) في أدب الدنيا (الباب الخامس) في دب النفس وانما أستمد من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفظ موهبته بحوله ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ

﴿ باب فضل العع العقل وذم الهوى ﴾

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضائل وينبوع الآداب هو

العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا فاوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة باحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز فى العقل فاوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى أو يرده عن ردى * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل عمل دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه اما سمعتم قول الفجار ( لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ) * وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه * وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى ما استودع الله أحدا عقلا الا استنقذه به يوما ما * وقال بعض الحكماء العقل أفضل مرجو والجهل انكى عدو * وقال بعض الادباء صديق كل امرء عقله وعدوه جهله * وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل * وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم بن حسان

يزين الفتى فى الناس صحة عقله ... وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله ... وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى فى الناس بالعقل أنه ... على العقل يجرى علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فليس من الاشياء شئ يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

واعلم أنه بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزى ومكتسب * فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم فى الانسان سمى عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت أموره ... وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى ( لينذر من كان حيا ) أى من كان عاقلا واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا فى محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لان

الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول في العقل بانه جوهر لطيف فاسد من وجهين * أحدهما أن الجواهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها مالا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها مايوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله * والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرا وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ماهي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الادراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذا أو آلما أو مشتهيا وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الاجمال والاحتمال وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ماوقع عن درك الحواس * والثاني ما كان مبتدأ في النفوس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الاشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله انه لو أدرك لعلم وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بان الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن عبد بن قيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فانت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل نور في القلب يفرق به بين

الحق والباطل * وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله فى القلب لان القلب محل العلوم كلها قال الله تعالى (أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) فدلت هذه الآية على أمرين * أحدهما أن العقل علم * والثانى أن محله القلب وفى قوله تعالى (يعقلون بها) تأويلان * أحدهما يعلمون بها. والثانى يعتبرون بها فهذه جملة القول فى العقل الغريزى

(واما العقل المكتسب) فهو نتيجة العقل الغريزى وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة وليس لها حد لانه ينمو ان استعمل وينقص ان اهمل ونماؤه يكون باحد وجهين اما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد من شهوة كالذى يحصل لذوى الاسنان من الحنكة وصحة الرؤية بكثرة التجارب وممارسة الامور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم المشايخ اشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم ان رأوك فى قبيح صدوك وان ابصروك على جميل امدوك وقيل عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير وقيل فى منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وقيل فيه لا تدع الايام جاهلا الا ادبته وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الايام عظة وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل وقال بعض الادباء كفى مخبرا عما بقى ما مضى وكفى عبرا لاولى الالباب ما جربوا وقال بعض الشعراء

ألم تر ان العقل زين لاهله  وان تمام العقل طول التجارب

﴿ وقال آخر ﴾

اذا طال عمر المرء فى غير آفة  افادت له الايام فى كرها عقلا

واما الوجه الثانى فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس فى زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزى صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذى يكون فى الاحداث من وفور العقل وجودة الرأى حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما اراد ان يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا قوله اذعانا للحق فصارا

الى ابى جهل لحداثة سنه وحدة ذهنه فابى ان يحكم بينهما فرجع الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد

ياهرم ابن الاكرمين منصبا　　انك قد أوتيت حكما معجبا

وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم وقد قال الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا　　ولم يقسم على عدد السنينا

ولو ان السنين تقاسمته　　حوى الآباء أنصبة البنينا

وحكى الاصمعى رحمه الله قال قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثنى فامتعنى بفصاحة وملاحة أيسرك ان يكون لك مائة ألف درهم وانت أحمق قال لا والله قال فقلت ولم قال أخاف ان يجنى على حمقى جناية تذهب بمالى و يبقى على حمقى فانظر الى هذا الصبى كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته مالعله يدق على من هو اكبر منه سنا وأكثر تجربة وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ماحكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر رضى الله تعالى عنه مالك لم لاتهرب مع أصحابك فقال ياأمير المؤمنين لم اكن على ريبة فاخافك ولم يكن الطريق ضيقا فاوسع لك فانظر ماتضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم واثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية . وحكى ان سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق بضرب أعناق أسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفا لايقطع شيئا فقال الفرزدق بل أضربهم بسيف أبى رغوان مجاشع يعنى سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومى منهم فنبا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق

أيعجب الناس أن أضحكت سيدهم　　خليفة الله يستسقى به المطر

لم ينب سيفى من رعب ولادهش　　عن الاسير ولكن أخر القدر

ولن يقدم نفسا قبل ميتتها　　جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول

ماأن يعاب سيد اذا صبا　　ولا يعاب صارما اذا نبا　　ولايعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس وهو يقول كانى بابن المراغة قد هجانى فقال

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فانشأ يقول

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال ياامير المؤمنين كانى بابن القين وقد أجابنى فقال

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم اذا أثقل الاعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها وتقطع أحيانا مناط التمائم

ولن نقتل الاسرى ولكن نفكهم اذا اثقل الاعناق حمل المغارم

وهل ضربة الرومى جاعلة لكم أبا عن كليب أو أخا مثل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى أن المهدى أتى باسرى من الروم فامر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له اضرب عنق هذا العلج فقال ياأمير المومنين قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فعير به قومه الى اليوم فقال انما اردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزعت من الرومى وهو مقيد فكيف ولو لاقيته وهو مطلق

دعاك أمير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يفرق

فنح شبيبا عن قراع كتيبة وأدن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان أعضل كما قيل لعلى رضى الله تعالى عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله بن عباس أين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال اين تذهب نار المصابيح عند فناء الادهان وهذا الجوابان جوابا اسكات تضمنا دليلى اذعان وحجتى قهر ومن غير هذا الفن وان كان مسكتا ما حكى عن ابليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال الست تقول انه لن يصيبك الاما كتبه الله

سبحانه وتعالى عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه إن يقدر لك السلامة تسلم فقال له ياملعون ان الله سبحانه وتعالى ان يختبر عباده وليس للعبد ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله تعالى الذين امدهم بوحيه وأيدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعول على بديهته وروى قسم بن العباس رضى الله تعالى عنهما قال قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كم بين السماء والارض قال دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله اما اختبارا واما استبصارا فصدر عنه من الجواب ماأسكت فاما اذا اجتمع هذان الوجهان فى العقل المكتسب وهو ماينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ماينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق فى الرجل الفاضل بالاستحقاق روى انس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله قالوا يارسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله ان من أدبه فقال كيف عقله قالوا يارسول الله نثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم واختلف الناس فى العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ماوردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خير الامور اوساطها وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه خير الامور النمط الاوسط اليه يرجع العالى وبه يلحق التالى وقال الشاعر

لاتذهبن فى الامور فرطا * لاتسألن ان سألت شططا * وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا لان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أبا موسى الاشعرى أن يعزل زيادا عن ولايته

فقال زياد يا أمير المؤمنين أعن موجدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك ولاجل هذا المحكي عن عمر ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجسد وقال بعض الحكماء كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك : وقال بعض البلغاء قليل يكفي خير من كثير يطغي وقال آخرون وهو أصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخي اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أفضل الناس اعقل الناس وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان ألوف مالوف وقد قيل في تاويل قوله تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) أي بحسب عقله وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه وقيل في منثور الحكم كل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا وقال بعض البلغاء ان العاقل من عقله في ارشاد ومن رأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغواء ومن هواه في اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم وانشدني ابن لنكك لابيه

من يكن أكثره عقله * أهلكه اكثر ما فيه

فاما الدهاء والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال كان والله أفضل من أن يخدع وأعقل من ان يخدع وقال عمر لست بالخب ولا يخدعني الخب واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد واشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا أم لا فقال بعضهم اسميه عاقلا لوجود العقل فيه وقال آخرون لا اسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينا لان الخير والدين من موجبات العقل فاما الشرير فلا اسميه عاقلا وانما اسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل من عقل عن الله امره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه فيمن أوصى بثلث ماله لا عقل الناس انه

يكون مصروفا فى الزهاد لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالامل وروى لقمان بن ابى عامر عن ابى الدرداء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابى انت وأمى ومن لى بالعقل قال اجتنب محارم الله وأدفر أض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزدد فى الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا وأنشدنى بعض اهل الادب هذه الابيات وذكر انها لعلى بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه

ان المكارم اخلاق مطهرة فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف سادنها
والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم انى لا أصدقها ولست أرشد الا حين أعصيها
والعين تعلم من عينى محدثها ان كان من حزبها أومن أعاديها
عيناك قد دلتا عينى منك على أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم ان العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزى لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزى عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالانوك الذى لا تجد له فضيلة والاحمق الذى قلما يخلو من رزيلة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق ابغض خلق الله اليه اذ حرمه أعز الاشياء عليه وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل أقبح من الحاجه الى المال وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل وقال انو شروان لبزرجمهر أى الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعى صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف وقال سابور بن ازدشير العقل نوعان احدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

رأيت العقل نوعين فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضائل والاحمق بما فيه من الرذائل فقال العاقل اذا والى بذل فى المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان احسن الى احد ترك المطالبة بالشكر وان اساء اليه مسيء سبب له اسباب العذر او منحه الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان اونس تكبر وان اوحش تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنة ومعاتبته محنة ومحاورته تغر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقا وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والاحمق يسيء الى غيره ويظن انه قد أحسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه فيظن انه قد أساء اليه فيطالبه بالوتر فمساوى الاحمق لا تنقضي وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ما وراءها بما هو أدنى منها وأردى وامر وادهى فما اكثر العبر لمن نظر وانفعها لمن اعتبر وقال الاحنف بن قيس من كل شيء يحفظ الاحمق الا من نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما اقبلت على الجاهل بالاتفاق وادبرت عن العاقل بالاستحقاق فان اتتك منها سهمة مع جهل او فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملك ذلك على الرغبة فى الجهل والزهد فى العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شيء من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذى يحن الى النقلة ودولة العاقل كالنسيب الذى يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل أو منزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد ان تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا واعلم انه بحسب ما ينتشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا فى الغابرين وحديثا فى الآخرين مع هتكه فى عصره وقبح ذكره فى دهره كالذى رواه عطاء عن جابر قال كان فى بنى اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لعلفته مع حمارى فهم به نبى من بنى اسرائيل فاوحى الله اليه انما اثيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم والله لو اعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت امى فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله اترونه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع العامرى وكان من النوكى سائر اليمامة فاقاد

كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بان الله حق لقاؤه　　وأن الربيع العامرى رقيع
أقادلنا كلبا بكلب ولم يدع　　دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لمعار الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به　　الا الحماقة أعيت من يداويها

(فصل) واما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما الهوى اله يعبد من دون الله ثم تلا (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) وقال عكرمة فى قوله تعالى (ولكنكم فتنتم انفسكم) يعنى بالشهوات (وتربصتم) يعنى بالتوبة (وارتبتم) يعنى فى أمر الله (وغرتكم الامانى) يعنى بالتسويف (حتى جاء امر الله) يعنى الموت (وغركم بالله الغرور) يعنى الشيطان وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرى وان الباطل خفيف وبى وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه اخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة وقال الشعبى انما سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه وقال اعرابى الهوى هوان ولكن غلط باسمه فاخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه　　فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منثور الحكم من أطاع هواه اعطى عدوه مناه وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع وقال بعض البلغاء فضل الناس من عصى هواه وافضل منه من رفض دنياه وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

اذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى　　الى كل مافيه عليك مقال

قال ابن المعتز رحمه الله تعالى لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت وقال الشاعر

اذا مارأيت المرء يقتاده الهوى　　فقد ثكلته عند ذاك ثواكله

وقد اشمت الاعداء جهلا بنفسه　　وقد وجدت فيه مقالا عواذله

ومايردع النفس اللجوج عن الهوى　　من الناس الا حازم الرأى كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لان سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفى ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ احكام الهوى عليه اعنى باحد الوجهين قوى سلطانه وبالآخر خفاء مكره فاما الوجه الاول فهو ان يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولى عليه مغالبة الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها فى العقل المقهور بها وهذا يكون فى الاحداث اكثر وعلى الشباب اغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يرى ان الشباب له　　فى كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم وقال بعض الادباء الهوى عسوف والعدل مالوف وقال بعض الشعراء

ياعاقلا اردى الهوى عقله　　مالك قد سدت عليك الامور

اتجعل العقل اسير الهوى　　وانما العقل عليه امير

وحسم ذلك ان يستعين بالعقل على النفس النفور فيشعرها مافى عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الآثام فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات اخبر ان الطريق الى الجنة باحتمال المكاره والطريق الى النار باتباع الشهوات قال على بن بى طالب رضى الله تعالى عنه اياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوفها بالتاميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانقادت وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر الى ماتسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وماتهوى داؤها وترك ماتهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء وقال الشاعر

صبرت على الأيام حتى تولت　　وألزمت نفسى صبرها فاستمرت

وما النفس الا حيث يجعلها الفتى    فان اطمعت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى ان يصير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى فى ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى ( واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى الماوى ) وقال الحسن البصرى فضل الجهاد جهاد الهوى وقال بعض الحكماء اعز العز الامتناع من تملك الهوى وقال بعض البلغاء خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه وقال بعض الادباء من امات شهوته فقد احيا مروءته وقال بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم وقيل لبعض الحكماء من اشجع الناس واحراهم بالظفر فى مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس فى مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنى    بطاعة الحزم وعصيان الهوى

واما الوجه الثانى فهو ان يخفى الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه احد شيئين اما ان يكون للنفس ميل الى ذلك الشئ فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمى ويصم اى يعمى عن الرشد ويصم عن الموعظة وقال على رضى الله تعالى عنه الهوى عمى قال الشاعر    *حسن فى كل عين من تود*

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه

ولست براء عيب ذى الود كله    ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة    ولكن عين السخط تبدى المساويا

وأما السبب الثانى فهو استثقال الفكر فى تمييز ما اشتبه وطلب الراحة فى اتباع ما يسهل حتى يظن ان ذلك اوفق امريه واحمد حاليه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم ان يتورط بخدع الهوى وزينة المكر فى كل مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غاب وقال سليمان

ابن وهب الهوى امتع والرأى انفع وقيل فى المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح وقال الشاعر

اذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار بالذى دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعى العقل وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه فى صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت ليتضح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق أثقل محملا وأصعب مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه وترك اسهلهما عليه فان النفس عن الحق انفر وللهوى آثر وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك أمران فدع احبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو ان الثقيل تبطئ النفس عن التسرع اليه فيتضح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه من تفكر أبصر والمحبوب أسهل شئ تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه ايقضى فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا وقال الشاعر

أليس طلاب ما قد فات جهلا وذكر المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فاترك الهوى تسلم وأعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهى ولا تفتننك دنياك بحسن العوارى فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم وقال على بن عبد الله الجعفرى سمعتنى امرأة بالطواف وأنا انشد

اهوى هوى الدين واللذات تعجبنى فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما فى العلة والمعلول واتفاقهما فى الدلالة والمدلول فهو ان الهوى مختص

بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل اللذة فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي اخص والهوى اصل هو اعم ونحن نسأل الله تعالى ان يكفينادواعي الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا فقد روى ان الله تعالى أوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال محمد بن كناسة

مامن روى ادبا ولم يعمل به ويكف عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بما تعلم عاملا من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغني اصابة قائل افعاله افعال غير مصيب

﴿ وقال آخر ﴾

ياايها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا كيما يصح به وانت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تنذر ان وعظت ويقتدى بالقول منك ويقبل التعليم
لاتنه عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى ابو فروة أن طارقا صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسري مر با بن شبرمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة

اراها وان كانت تحب كانها سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه ابو بكر تذكر قولك يوم كذا اذ مر بك طارق في موكبه فقال يابني انهم يجدون مثل ابيك ولا يجد ابوك مثلهم ان اباك اكل من حلوائهم فخبط في اهوائهم اماترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من ابر بنيه فكيف بناونحن اطلق منه عنانا واقلق جنانا اذا رمقتنا اعين المتتبعين وتناولتنا السن المعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا او سوى عصمته معاذا

## ﴿ باب أدب العلم ﴾

اعلم ان العلم اشرف مارغب فيه الراغب وافضل ماطلب وجد فيه الطالب وانفع ماكسبه

واقتناه الكاسب لان شرفه ينمو على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه قال الله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فنفى سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى (وما يعقلها إلا العالمون) فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه امرا أو يفهم منه زجرا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام انى عليم احب كل عليم وروى ابو امامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين احدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على ادناكم رجلا وقال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه الناس أبناء ما يحسنون وقال مصعب بن الزبير لابنه تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمال وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يابنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف من لا قدر له والادب مال لا خوف عليه وقال بعض الادباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك واملك وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلى مثل الدنى    لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى

قيمة المرء قدر ما يحسن المر    ءقضاء من الامام على

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا ابلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا اهله وتوهموا ان ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى ان يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز فى منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيئا عاداه وأنشدنى ابن لنكك لابى بكر

ابن دريد جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا ويكره لا ادري اصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم افضل ام المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على ابواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال وأنشدت لبعض اهل هذا العصر

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله فاجسامهم قبل القبو رقبور
وان امرأ لم يحيي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتى الى كلامكم أشد من حاجتى الى طعامكم انى طالب هدى لا سائل ندى فاذن له العالم وأفاده عن كل ماسال عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم اوضح لبسا خير من مال اغنى نفسا واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال . قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها حيث يقول (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص فى كل يوم من الجهل ونزداد فى كل يوم من العلم وقال بعض العلماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى ارضا ولا يعرف طولا ولا عرضا وقيل لحماد الراوية اما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر اذا قطعنا علما بدا علم وانشد الرشيد عن المهدى بيتين وقال أظنهما له

يا نفس خوضى بحار العلم أو غوصى فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شئ فى هذه الدنيا نحيط به الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة اهمها والعناية باولاها وافضلها وأولى العلوم وافضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح اداء عبادة جهل فاعلها صفات ادائها ولم يعلم شروط اجزائها ولذلك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك
لان العلم يبعث على فعل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة
فلزم علم الدين كل مكلف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل
مسلم وفيه تاويلان احدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات * والثاني جملة العلم اذا لم
يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان
وفرض جميعه على الكفاية كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكفاية قال الله
تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا
اليهم لعلهم يحذرون) وروى عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
دخل المسجد فاذا هو بمجلسين * احدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما احب الى من صاحبه اما هؤلاء
فيذكرون الله تعالى ويسالونه فان شاء اعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر
فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى اهل الفقه وروى
مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الخير
عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقه في الدين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال خيار أمتي علماؤها وخير علماؤها فقهاؤها وروى معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن
عبد الرحمن العدوى قال قال عليه السلام يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه
تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال على بخلفائي قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحبون سنتي يعلمونها عباد الله وروى
حميد عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقه في الدين فرض على كل مسلم الا فتعلموا
واعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا وروى سليمان بن يسار عن ابي هريرة ان النبي صلى
الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشئ افضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان
من الف عابد ولكل شئ عماد وعماد الدين الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى
العلوم العقلية ورأى انها احق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من
التكليف واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا
في اصل لا يتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان

العقل يمنع من أن يكون الناس هملا او سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لاهوائهم المتشعبة لماتؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع وتفضى اليه احوالهم من التباين والتقاطع فام يستغنوا عن دين يتالفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو تابع له ولو تصور هذا المختل التصوران الدين ضرورة فى العقل وان العقل للدين اصل لقصر عن التقصير واذعن للحق ولكن اهمل نفسه فضل واضل وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعى فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمرى ان صيانة النفس اصل الفضائل لان من اهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على مايلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ورسموه بقبيح تبذله فلم يف ما اعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح اتم من الجميل والرذيلة اشهر من الفضيلة اذ الناس لما فى طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما القبح اثرها واغترار كثير من الناس بها وقد قيل فى منثور الحكم زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشد الناس قال زلة العالم اذا زل هلك بزلته عالم كثير فهذا وجه واما الان الجهال بذمه اغرى وعلى تنقيصه اجرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عناد الماجهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما ان العالم يرى الجهل تخلفا وذما وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه　　كمنزلة الفقيه من السفيه

فهذا زاهد فى قرب هذا　　وهذا فيه ازهد منه فيه

اذا غلب الشقاء على سفيه　　تنطع فى مخالفة الفقيه

وقال يحيي بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ماجهل وانا أكره أن تكون عدو شيء من العلم وأنشد

تفنن وخذ من كل علم فانما　　يفوق امرؤ فى كل فن له علم

فانت عدو للذى أنت جاهل به والعلم أنت تيقنه سلم

واذا ان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أن تعيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعزة النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله وروى أبو الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وروى أبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة وقال بعض البلغاء ان من الشريعة ان تجل أهل الشريعة ومن الصنيعة ان ترب حسن الصنيعة فينبغى لمن استدل بفطنته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فان من نفذ أمره فهو الى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله وقال بعض علماء السلف اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله فاما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس فى كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شىء حتى صاروا فى الفقر مثلا قال البحترى

فقر كفقر الانبياء وغربة وصبابة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة فى المال منحه الله الكافر وحرمه المؤمن قال الشاعر

كم كافر بالله أمواله تزداد أضعافا على كفره

ومؤمن ليس له درهم يزداد ايمانا على فقره

يالائم الدهر وأفعاله    مشتغلا يزرى على دهره
الدهر مامور له آمر    ينصرف الدهر على أمره

وقد بين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فضل ما بين العلم و المال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقى خزان العلم أعيانهم مفقودة وأشخاصهم فى القلوب موجودة وسئل بعض العلماء أيما أفضل المال أم العلم فقال الجواب عن هذا ايما افضل المال أم العقل وقال صالح بن عبد القدوس

لاخير فيمن كان خير ثنائه    فى الناس قولهم غنى واجد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره فى صغره أن يتعلم فى كبره فرضى بالجهل ان يكون موسوما به وآثره على العلم ان يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوى الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولان يكون شيخا متعلما أولى من أن يكون شيخا جاهلا * حكى ان بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر فى العلم ويستحى فقال له ياهذا أتستحى ان تكون فى آخر عمرك أفضل مما كنت فى أوله وذكر ان ابراهيم ابن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال ياعم ماعندك فيما يقول هؤلاء فقال ياأمير المؤمنين شغلونا فى الصغر واشتغلنا فى الكبر فقال لم لا تتعلمه اليوم قال أو يحسن بمثلى طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بى طلب العلم قال ماحسنت بك الحياة لان الصغير اعذر وان لم يكن فى الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه ايام الاهمال وقد قيل فى منثور الحكم جهل الصغير معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به اقبح ونقصه عليه افضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت ايامه فى الجهل ماضية ومن الفضل خالية كان الصغير افضل منه لان الرجاء له اكثر والامل فيه أظهر وحسبك نقصا فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل افضل منه وانشدت لبعض اهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما    عن الفضل للانسان سميته طفلا

وما تنفع الاعوام حين يعدها ... ولم يستفد فيهن علما ولا فضلا
ارى الدهر من سوء التصرف مائلا ... الى كل ذى جهل كان به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان اعذر من غيره مع انه قلما يكون ذلك الا عند ذى شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغى ان يصرف للعلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وايام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا واسراء الحرص وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شئ فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى وقال بعض العلماء من أحب العلم احاطت به فضائله وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخيفة اهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا ... فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابى هريرة رضى الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف ان اضيعه فقال كفى بترك العلم اضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفطن ينبغى لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذى يخرج به من حد الجهالة الى ادنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكى فى نفس راغب شهى وطالب خلى لا سيما وطالب العلم معان قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور فى نفسه حرفة اهله وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها واذ وجد كتابا اعرض عنه وان رأى متحليا بالعلم هرب منه كانه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يصحبنى من محبرة

وكتاب لئلا اكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا فقد قال بزرجمهر الجهل فى القلب كالنز فى الارض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروى عن أبى الاشعث عن أبى عثمان عن ثوبان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خالطوا الناس باخلاقهم وخالفوهم فى أعمالهم ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لان من اعتقد ان العلم شين وان تركه زين وان للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذى قال فيه على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله فى العذل نفع ولا فى الاستصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر ما لكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التى تنفر من العلم هذا النفور وتعاند أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد ان العاقل محارف وان الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده فى العقل والعلم هل يكون للخير أهلا أو لفضيلة موضعا وقد قال بعض البلغاء أخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا انهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا ان العلم والعقل هما السبب فى قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى وادبار أكثر الجهال لان فى العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتمييز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال فى أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان فى اكثرهم وانما يصير

ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهر الان حظه عجب واقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب واقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما أعجب الاشياء فقال نجح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الامور على مشيئته وقد قالت الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام الطائي فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ... ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجرى على الحجى ... هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن أبي سلمى

لو كنت أعجب من شيء لاعجبني ... سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهم منتشر

على أن العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقي ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني سعيدا والجهل يضعه ام كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه وقد قيل في منثور الحكم كم من ذليل اعزه علمه ومن عزيز أذله جهله وقال عبد الله بن المعتز نعمة الجاهل كروضة مزبلة وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا * وقال بعض العلماء لبنيه يا بني تعلموا العلم فان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلان يذم الزمان لكم أحب الى من ان يذم الزمان بكم * وقال بعض الادباء من لم يستفد بالعلم مالا كسب به جمالا وانشد بعض أهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفى أنينه ... ويضحى كئيب البال عندى حزينه
ويلوم على ان رحت للعلم طالبا ... اجمع من عند الرواة فنونه
فاعرف ابكار الكلام وعونه ... واحفظ مما استفيد عيونه
ويزعم ان العلم لا يكسب الغنى ... ويحسن بالجهل الذميم ظنونه

فيالائمى دعنى اغالى بقيمتى　　فقيمة كل النـاس مايحسنونه

وانا استعيذ بالله من خدع الجهل المذلة وبوادر الحمق المضلة واساله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم فينبغى لمن زهد فى العلم ان يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا ولمن طلبه ان يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه ان يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا وقد قال الشاعر

لاتعذرانى فى الاساءة انه　　شرار الرجال من يسيء فيعذر

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجتنا　　وحاجة من عاش لاتنقضى

تموت مع المرء حاجاته　　وتبقى له حاجة مابقى

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من تعلم علما لغير الله واراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار وروى ابو هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب اهله فان احدكم لايدرى متى يحتاج اليه اومتى يحتاج الى ماعنده وليحذر ان يطلبه لمراء او رياء فان المماري به مهجور لاينتفع والمرائى به محقور لايرتفع وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لاتعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه وليس المماري به هو المناظر فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع مايرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لايجادل الامنافق او مرتاب وقال الاوزاعى اذا اراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل وانشد الرياشى لمصعب بن عبد الله

اجادل كل معترض ظنين　　فاجعل دينه غرضا لديني

واترك ماعملت لرأى غيرى　　وليس الرأى كالعلم اليقين

ومانا والخصومة وهى شيء　　يصرف فى الشمال وفى اليمين

فاماماعلمت فقد كفانى واماماجهلت فجنبونى

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا يمنعنك حذر المراء من حسن المناظرة فان المماري هو الذى لا يريد ان يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد واعلم ان لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيآن رغبة اورهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا اما الرغبة ففى ثواب الله تعالى لطالبى مرضاته وحافظى مفترضاته واما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركى اوامره ومهملى زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة ادتا الى كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة اقوى الباعثين على العلم والرهبة اقوى السببين فى الزهد وقد قالت الحكماء اصل العلم الرغبة وثمرته السعادة واصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فياويح مفترقين فما أضر افتراقهما واقبح انفرادهما وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من ازداد فى العلم رشدا ولم يزدد فى الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا وقال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما اوتى منه لا ينفعه وقال بعض الحكماء الفقيه بغير ورع كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه

﴿فصل﴾ واعلم ان للعلوم اوائل تؤدى الى اواخرها ومداخل تفضى الى حقائقها فليبتدىء طالب العلم باوائلها لينتهى الى اواخرها وبمداخلها ليفضى الى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير اس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى ولذلك اسباب فاسدة ودواع واهية فمنها ان يكون فى النفس اغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه الى ادب القاضى وما يتعلق به من الدعوى والبينات او يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل ما يعانى فاذا ادرك ذلك ظن انه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم ير ما بقى منه الا غامضا طلبه عناء وعويصا استخراجه فناء لقصور همته على ما أدرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم ان ما ترك اهم مما ادرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا باوائلها وقد يصح قيام الاوائل بانفسها فيصير طلب الاواخر بترك

الاوائل تركاللاوائل والاواخر فاذا ليس يعرى من لوم وان كان تارك الكل ألوم
ومنها ان يحب الاشتهار بالعلم اما لتكسب او لتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر من
مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على
الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد
رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار
المتبحرين اذا اخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم
ضلت افهامهم حتى انهم ليخبطون في الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا
يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا نمقوا في المجالس كلاما مرصوفا ولفقوا على
المخالف حجاجا مالوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه المبتدي ويتداوله الناشيء فهم
دائما في لغط مضل او غلط مذل ورأيت قوما منهم يرون الاشتغال بالمذاهب تكلفا
والاستكثار منه تخلفا وحاجني بعضهم عليه فقال كيف يكون علم حافظ المذاهب مستورا
وعلم المناظر علما مشهورا فقلت كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وهو سريع
الجواب كثير الصواب لانه ان لم يسئل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسئل سال
فعرف وقلت أليس اذا سئل الحافظ فاصاب بان فضله قال نعم قلت افليس اذا سئل
المناظر فاخطا بان نقصه وقد قيل عند الامتحان يكرم المرء او يهان فامسك عن جوابي
لانه ان انكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك اذعان والسكوت رضى
ولان ينقاد الى الحق اولى من ان يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو
غير عروف ولا معروف وبعيد ممن لا يعرف العلم ان يعرفه به وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعلم في الصغر ثم يشتغل به في الكبر فيستحي
ان يبتدىء بما يبتدىء الصغير ويستنكف أن يساويه الحدث الغرير فيبدأ باواخر العلوم
واطرافها ويهتم بحواشيها واكنافها ليتقدم على الصغير المبتدي ويساوي الكبير المنتهي
وهذا ممن رضى بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لان معقوله ان احس ومعقول كل ذي
حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق باختلال هذا التخيل لانه شيء لا يقوم في وهم
وجهل ما يبتدىء به المتعلم اقبح من جهل ما ينتهي اليه العالم وقد قال الشاعر

ترق الى صغير الامر حتى ... يرقيك الصغير الى الكبير
فتعرف بالتفكر فى صغير ... كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم فى الصغر احمد روى مروان بن سالم عن اسمعيل
ابن ابى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش
على الصخر والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء وقال على بن ابى طالب كرم الله
وجهه قلب الحدث كالاراضى الخالية ماالقى فيها من شىء قبلته وانما كان ذلك لان
الصغير افرغ قلبا واقل شغلا وايسر تبذلا واكثر تواضعا وقد قيل فى منثور الحكم
المتواضع من طلاب العلم اكثرهم علما كما ان المكان المنخفض اكثر البقاع ماء فاما ان
يكون الصغير أضبط من الكبير اذا عرى من هذه الموانع واوعى منه اذا خلا من هذه
القواطع فلا * حكى ان الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعلم فى الصغر كالنقش
على الحجر فقال الاحنف الكبير اكثر عقلا ولكنه اشغل قلبا ولعمرى لقد لخص
الاحنف عن المعنى وبينه ونبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة فمنها ماذكرنا من
الاستحياء وقد قيل فى منثور الحكم من رق وجهه رق علمه وقال الخليل بن احمد
يرتع الجهل بعد الحياء والكبر فى العلم ومنها وفور شهواته وتقسم افكاره وقال الشاعر

صرف الهوى عن ذى الهوى عزيز ... ان الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم
المذهلة وقد قيل فى منثور الحكم الهم قيد الحواس وقال بعض البلغاء من بلغ اشده
لاقى من العيش اشده ومنها كثرة اشغاله وترادف احواله حتى انها تستوعب زمانه
وتستنفد أيامه فاذا كان ذا رئاسة الهته وان كان ذا معيشة قطعته ولذلك قيل تفقهوا قبل
ان تسودوا وقال بزرجمهر الشغل مجهدة والفراغ مفسدة فينبغى لطالب العلم ان لا ينى
فى طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدىء من العلم
باوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب مالا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك مالا
يسعه جهله فان لكل علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة ان صرف اليها نفسه قطعته عما
هو أهم منها وقال ابن عباس رضى الله عنهما العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شىء
احسنه وقال المامون ما لم يمكن من العلم بارعا فبطون الصحف اولى به من قلوب الرجال

وقال بعض الحكماء بترك مالا يعنيك يتم لك مايعنيك ولا ينبغى ان يدعوه ذلك الى ترك مااستصعب عليه اشعارا لنفسه ان ذلك من فضول علمه واعذارا لها فى ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ماتسهل وترك منه ماتعذر كان كالقانس اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعا كذلك العلم طلبه صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التى يتوصل اليها مستودعة فى كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب * وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلاثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعانى سقط عنه كلفة استخراجها وبقى عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعانى شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم انست واذا ذكرها بعد الانس رست وقال بعض العلماء من اكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد مالم يعلم * وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علما نسى ماتعلما

فكم جامع للكتب من كل مذهب يزيد مع الايام فى جمعه عمى

وان لم يفهم معانى ماسمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة فى تعذر فهمها فانه بمعرفة أسباب الاشياء وعللها يصل الى تلافى ماشذ وصلاح مافسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام اما ان يكون لعلة فى الكلام المترجم واما أن يكون لعلة فى المعنى المستودع واما ان يكون لعلة فى السامع المستخرج فان كان السبب المانع من فهمها العلة فى الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال * احدها ان يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من أحد وجهين اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته وقلة فهمه * والحال الثانى ان يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من احد وجهين اما من هذر المتكلم واكثاره واما لسوء ظنه بفهم سامعه * والحال الثالث ان يكون لمواضع يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها فاما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون

[illegible] ذلك عاما فى كل كلام وانما تجده فى بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر الى الكا[illegible]ستوفى وعن الزائد الى الكافى أرحت نفسك من تكلف ما يكدر خاطر[illegible] على استخراجه اما الضرورة دعتك اليه عند اعوازغيره او لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر فى سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ماله من الكلام محصول لا يجوز ان يكون المختل منه اكثر من الصحيح وفى الاكثر على الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه اسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو أصعب الامور حالا وابعدها استخراجا لان مالم يفهمه مكاملك فانت من فهمه ابعد الا ان تكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبه باشارته على استنباط ماعجز عنه واستخراج ماقصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له وأما المواضعة فضربان عامة وخاصة فاما العامة فهى مواضعة العلماء فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام ألقابا وضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا وأما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت فى الكلام كانت رمزا وان كانت فى الشعر كانت لغزا فاما الرمز فلست تجده فى علم معنوى ولا كلام لغوى وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه واما لما يدعى أربابه انه علم معوز وان ادراكه بديع معجز كالصنعة التى وضعها اربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا باوصافه واخفوا معانيه ليوهموا الشح به والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة وقد قال الشاعر

منعت شيئا فاكثرت الولوع به وحب شىء الى الانسان مامنعا

ثم ليكونوا ابراء من عهدة ماقالوه اذا جرب ولو كان ماتضمن هذين النوعين واشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفى الى العلم الجلى فان اغراض الناس مع اختلاف اهوائهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء مفيد وقد

قال زهير

السترُ دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الالفاظ ليكون احلى في القلوب موقعا واجل في النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفي الصحف مخلدا كالذي حكي عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة انه قال احفظ ميزانك من الندى واوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من الندى حفظ اللسان من الخنا وحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الفصيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم وماظهر منها ولم يحتجب هان واسترذل وهذا انما يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل فاما العلوم المنتشرة التي تطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعي اليها عن الاستدعاء اليها برمز مستحلى ولفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما في الاشتغال باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها وتصور معانيها فهذا حال الرمز وأما اللغز فهو تحدي أهل الفراغ وشغل ذوي البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعا ولا يفيد علما فهم كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد أجسامهم لا يكسبهم حمدا ولا يجدي عليهم نفعا أنظر الى قول الشاعر

رجل مات وخلف رجلا ابن أم ابن أبي أخت أبيه

معه أم بني أولاده وأبا أخت بني عم اخيه

أخبرني عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمناه من السؤال اذا استكدك الفكر في استخراجه فعلمت انه أراد ميتا خلف أبا وزوجة وعما ما الذي أفادك من العلم ونفى عنك الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السائل قلب لك السؤال فاخر ما قدم وقدم ما أخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل الاول وقد كددت نفسك واتعبت خاطرك ثم لا تعدم أن يرد عليك مثل هذ

مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى
وتكلف البطالين فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من حسن اسلام المرء
تركه مالا يعنيه ثم اجعل مامن الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى
علم مايكون انفاق خاطرك فيه مذخورا وكدفكرك فيه مشكورا وقد روى سعيد
ابن أبي هند عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ونحن نستعيذ بالله من ان نغبن
فضل نعمته علينا ونجهل نفع احسانه الينا وقد قيل فى منثور الحكم من الفراغ
تكون الصبوة وقال بعض البلغاء من أمضى يومه فى غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد
أثله او حمد حصله او خير اسسه او علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلا و سباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل مافى الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء
الى الاطالة والكشف الى الاغماض * واما القسم الثانى وهو أن يكون السبب المانع
من فهم السامع لعلة فى المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة اقسام اما ان يكون
مستقلا بنفسه او يكون مقدمة لغيره او يكون نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه
فضربان جلى وخفى فاما الجلى فهو يسبق الى فهم متصوره من أول وهلة وليس هذا من
اقسام مايشكل على ذى تصور واما الخفى فيحتاج فى ادراكه الى زيادة تأمل وفضل
معاناة ليتجلى عما اخفى وينكشف عما اغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض
به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراءة
وللدراية تأثيرا واما ما كان مقدمة لغيره فضربان احدهما ان تقوم المقدمة بنفسها
وان تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه فى تصوره وفهمه وان كان مستدعيا
لنتيجته * والثانى ان يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتبعها من
النتيجة لانها تكون بعضا وتبعيض المعنى اشكل له وبعضه لا يغنى عن كله واما ما كان
نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا باوله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به
قبل المقدمة عناء واتعاب الفكر فى استنباطه قبل قاعدته اذى فهذا يوضح تعليل مافى

المعانى من الاسباب المانعة من فهمها واما القسم الثالث وهو ان يكون السبب المانع لعلة فى المستمع فذلك ضربان احدهما من ذاته. والثانى من طارئ عليه فاما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين احدهما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه والثانى ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه فاما المانع من تصور المعنى وفهمه. فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء وقد قال بعض الحكماء اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن بلى به الا الصبر والاقلال لانه على القليل اقدر وبالصبر أحرى أن ينال و يظفر وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه حالته الا ان يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته ويكلف جسده احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهود أعقبه ذلك الحاح الاملين و نشاط المدركين فقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنالون ما تحبون الا بالصبر على ماتكرهون ولا تبلغون ماتهوون الا بترك ماتشتهون وقيل فى منثور الحكم أتعب قدمك فكم من متعب قدمك وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف هانت الكلف وانشد بعض اهل الادب لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه

لاتعجزن ولا تدخلك مضجرة فالنجح يهلك بين العجز والضجر

واما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التوانى فينبغى لمن بلى به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس و يوقظ غفلة التقصير بادامة النظر فقد قيل لمن يدرك العلم من لا يطيل درسه و يكد نفسه وكثرة الدرس كدلا يصبر عليه الامن يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم و ينفى عنه معرة الجهل فان نيل العظيم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب و بحسب الراحة يكون التعب وقد قيل علة الراحة قلة الاستراحة وقال بعض الحكماء أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما ستثقل المتعلم الدرس والحفظ والتكل بعد فهم المعانى على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون الا كمن اطلق ماصاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع عنه فلا تعقبه الثقة الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها

أحد ثلاثة أشياء اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الامل فى التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأى فى عزيمته وليس يعلم ان الضجور خائب وان الطويل الامل مغرور وان الفاسد الرأى مصاب والعرب تقول فى أمثالها حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك وقالوا الاخير فى علم لا يعبر معك الوادى ولا يعمر بك النادى وأنشدت عن الربيع الشافعى رضى الله تعالى عنه

علمى معى حيثما يممت يتبعنى قلبى وعاء له لا بطن صندوق
ان كنت فى البيت كان العلم فيه معى او كنت فى السوق كان العلم فى السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعانى قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنته يروى بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذى لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية * وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يرعوى من لا يروى ويروى من لا يرعوى وحدث حسن البصرى بحديث فقال له رجل يا أبا سعيد عمن قال ما تصنع بعمن اما انت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته وربما اعتمد على حفظه وتصوره واغفل تقييد العلم فى كتبه ثقة بما استقر فى ذهنه وهذا خطأ منه لان الشك معترض والنسيان طارق * وقد روى انس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قيدوا العلم بالكتاب * وروى ان رجلا شكى الى النبى صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل يدك اى اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت * وقال الخليل بن أحمد اجعل ما فى الكتب رأس المال وما فى قلبك النفقة * وقال مهبوذ لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين لانحل مع النسيان عقود الآخرين * وقال بعض البلغاء ان هذه الاداب نوافر تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها رعاة واما الطارئ فنوعان . أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغى ان يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصور المعنى وادراك حقيقته * ولذلك قال بعض العلماء لا تخل قلبك من المذاكرة فتعود عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة فتصير سقيما وقال بشار بن برد

شفاء العمى طول السؤال وانما ... دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فانما ... دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

والثانى افكار تعارض الخاطر فتذهل عن تصور المعنى وهذا سبب قلما يعرى منه احد لاسيما من انبسطت آماله واتسعت امانيه وقد يقل فيمن لم يكن له فى غير العلم أرب ولا فيما سواه همة فان طرأت على الانسان مالم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصور لان القلب مع الاكراه أشد نفورا وأبعد قبولا وقد جاء فى الاثر بان القلب اذا أكره عمى ولكن يعمل فى دفع ماطرأ عليه من هم مذهل أو فكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا وقد قال الشاعر

وليس بمغن فى المودة شافع ... اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد فى التعليم والتوسط فى التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهذا تعليل ما فى المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعانى وههنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل فى جملة اقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره وهو الخط لان من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج فى فهمه الى تامل الخط به والمانع من فهمه هو على ماذكرنا من أقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى (أو أثارة من علم) قال الخط وعن مجاهد فى قوله تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) (يعنى الخط) والعرب تقول الخط احد اللسانين وحسنه احدى الفصاحتين وقال جعفر ابن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منثورها * وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية وقال حكيم العرب الخط اصيل فى الروح وان ظهر بحواس الجسد واختلف فى أول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة فى طين ثم طبخه فلما غرقت الارض فى أيام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فاصاب كل قوم

كتابهم وبقي الكتاب العربي الى ان خص الله تعالى به اسماعيل فاصابه وتعلمها وحكى ابن قتيبة أن أول من كتب ادريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من اجل نافع حتى قال عكرمة بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادى على انه يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه واثره وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ( اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ) فوصف نفسه بأن علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم وعد ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به في كتابه فقال سبحانه وتعالى ( ن والقلم وما يسطرون ) فاقسم بالقلم كما اقسم بما يخط بالقلم واختلف في اول من كتب بالعربية فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب بها آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسماعيل على نبينا وعليه السلام وحكى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان اول من كتب بها ووضعها اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه وحكى عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنه ان اول من كتب بها قوم من الاوائل اسماؤهم ابجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين وحكى ابن قتيبة في المعارف ان أول من كتب بالعربي مرامر بن مره من أهل الانبار ومن الانبار انتشرت وحكى المدائنى ان أول من كتب بها مرامر بن مره واسلم بن سدره وعامر بن جدره فمرامر وضع الصور واسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذا الحال وجب على من أراد حفظ العلم ان يعنى بامرين احدهما تقويم الحروف على اشكالها الموضوعة لها والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط في صحته وقد قال على بن عبيدة حسان الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال أبو العباس المبرد رداءة الخط زمانة الادب وقال عبد الحميد البيان في اللسان والخط في البنان وانشدنى بعض اهل العلم لاحد شعراء البصرة

اعذر أخاك على رداءة خطه  واغفر نذالته لجودة ضبطه
واعلم بأن الخط ليس يراد من  تركيبه الا تبين سمطه
فاذا أبان عن المعانى لم يكن  تحسينه الا زيادة شرطه

ومحل مازاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل مازاد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط احدى الفصاحتين وكما انه لا يعذر من اراد التقدم فى الكلام أن يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدم فى الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور وان فهم وافهم وبما تقدم بالخط من كان الخط أجل فضائله واشرف خصائله حتى صار علما مشهورا وسيداً مذكوراً غير أن العلماء أطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء فى الاغلب رديئة الا من أسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء ان يكون ردىء الخط ليكون الزمان الذى يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هى السعادة وانما السعادة ان لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيداً وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ماتضمنه قد تكون من ثمانية أوجه (الوجه الاول) اسقاطه الفاظاً من اثناء الكلام يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون امامن سهو الكاتب اومن فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وماسلم منه على ماسقط اوفسد لاسيما اذا قل لان الكلمة تستدعى مايليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فامامن كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثيراً لانه يحتاج فى فهم المعانى الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضل فكره من استنباطه (والوجه الثانى) زيادة الفاظ فى اثناء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا ان يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى اثنائه مايمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فاما وقوعه سهوا فقد يكون

بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره ( والوجه الثالث )
اسقاط حروف من اثناء الكلمة تمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة
من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول فى الوجه الاول
( والوجه الرابع ) زيادة حروف فى اثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من
حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج الصحيح
و يكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم
و يكون القول فيه كالقول فى الوجه الثانى ( والوجه الخامس ) وصل الحروف
المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان الكلمة ينبه عليها
وصل حروفها و يمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل
استخراجه وان كان ذلك من قلة معرفة بالخط او مشقا تسبق به اليد كثر فصعب
استخراجه الا على المرتاض به ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه شر الكتابة
المشق كما ان شر القراءة الهذرمة وان كان للتعمية والرمز لا يعرف الا بالمواضعة
( والوجه السادس ) تغيير الحروف عن اشكالها وابدالها باغيارها حتى يكتب الحاء
على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون فى رمز التراجم لا يوقف عليه الا
بالمواضعة الا لمن قد زاد فيه الذكاء فيقدر على استخراج المعمى ( والوجه السابع )
ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف
الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن غيرها حتى تصير العين الموصولة كالفاء
والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن
بفضل المعاناة وشدة التأمل وان كان ربما اضجر قارئه وأوهى معانيه ولذلك قيل ان
الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا ( والوجه الثامن ) اغفال النقط والاشكال التى
تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا أيسر أمرا وأخف حالا لان من كان متميزا بصحة
الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط
والاشكال بل قد استقبح الكتاب ذلك فى المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب
اوسوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له فى مكاتبة الرؤساء أكثر حكى قدامه
ابن جعفر ان بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكى العامل منه الى عبيد الله بن

سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد بن سليمان هذا هذا فاخذها العامل وقرأها فظن ان عبيد الله أراد بهذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال فى اثبات الشئ هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان وأراه خط عبيد الله وقال له ان عبيد الله قد صدق قولى وصحح ماذكرت فخفى على الكاتب ذلك وأطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله فرد اليه ليساله عن مراده به فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم فى استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه حال الكتاب فى استقباحهم اعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما فى كتب الادب التى يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام اكثر وهى مما سواه من العلوم ايسر وقد قال الثورى الخطوط المعجمة كالبرود المعلمه

وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع من استعجامه وشكله يؤمن من أشكاله وقال بعض الادباء رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام فى المكاتبات وان كان فى كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط فى المكاتبات وان كان فى العلوم مستقبحا وسبب ذلك انهم لفرط ادلالهم بالصنعة وتقدمهم فى الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانه تقصيرا ولقصد ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال أو امانيه عليه من سواد المداد أثر اجميلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا حكى ان عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا احسن من الزعفران وانشد

انما الزعفران عطر العذارى ومداد الدوى عطر الرجال

فهذه جملة كافية فى الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه لفظا كان او خطا والله ولى التوفيق. فينبغى لطالب العلم أن يكشف عن الاسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها فى حا ـ

تعلمه فان للنفس نفورا يفضى الى تقصير ووفورا يؤول الى سرف وقيادها عسر ولها احوال ثلاث فحال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف فاما حال العدل والانصاف فهى ان تختلف قوى النفس من جهتين متقابلين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها تمنع التقصير وشفقتها تردع عن السرف وهذه احمد الاحوال لان ما منع من التقصير نماء وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق به ان يستكمل * وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر فى الخروج عن الحد واما حال الغلو والاسراف فهى ان تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة على افراغ الجهد ويفضى بها افراغ الجهد الى عجز الكلام فيؤديها عجز الكلام الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا وقد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان اخذ منه قوتا عصمه وان اسرف فيه أبشمه وربما كان فيه منيته كاخذ الادوية التى القصد فيها شفاء ومجاوزة الحد فيها السم المميت * وأما حال التقصير والاجحاف فهى ان تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون وقد قال بعض الحكماء العجز مع ألوانى والفوت مع التوانى وقد يكون للنفس مع الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة احدى القوتين فيكون للنفس طاعة واشفاق واحداهما أغلب من الاخرى فان كانت الطاعة اغلب كانت الى الوفور المجاوز أميل وان كان الاشفاق أغلب كانت الى التقصير أقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه اشفاقها راض نفسه ليلبث على احمد حالاتها وقد أشار الى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق فى قوله

لكل امرىء نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى اذا قل من احرارهن شفيعها

فان اهمل سياستها واغفل رياضتها ورام أن ياخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد الى طاعة ولم تنكف عن معصية وقال سابق

البربرى

اذا زجرت لجوجازدته علقا ولجت النفس منه فى تماديها

فعد عليه اذامانفسه جمحت باللين منك فان اللين يثنيها

فاذا استصعب عليه قيادنفسه ودام منه نمور قلبه مع سياستها ومعاناة رياضتها تركها ترك راحة ثم عاودها بعد الاستراحة فان اجابتها تسرع وطاعتها ترجع . وقدروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان القلب يموت ويحيا ولو بعد حين . وقال ابن مسعود للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فاتوهامن قبل شهوتها ولا تاتوهامن قبل فترتها وقال الشاعر

وماسمى الانسان الالنسيه ولاالقلب الا أنه يتقلب

واما الشروط التى يتوفر بها علم الطالب وينتهى معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط ( الاول ) العقل الذى يدرك به حقائق الامور ( والثانى ) الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم ( والثالث ) الذكاء الذى يستقر به حفظ ماتصوره وفهم ماعلمه ( والرابع ) الشهوة التى يدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل ( والخامس ) الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذى يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار ( والسابع ) عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض ( والثامن ) طول العمر واتساع المدة لينتهى بالاستكثار الى مراتب الكمال ( والتاسع ) الظفر بعالم سمح بعلمه متان فى تعليمه فاذا استعمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم . وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى أربع مدة وجدة وقريحة وشهوة وتمامها فى الخامس معلم ناصح

﴿ فصل ﴾ وساذكر طرفا مما يتادب به المتعلم ويكون عليه العالم اعلم ان للمتعلم فى زمان تعلمه ملقا وتذللا ان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار . وقدروى معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليس من أخلاق المؤمن الملق الا فى طلب معلم . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ذللت

طالبا فعززت مطلوبا وقال بعض الحكماء من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا. وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله. فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من وقر عالما فقد وقر ربه. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لا يعرف فضل أهل الفضل. الا أهل الفضل. وقال بعض الشعراء

ان المعلم والطبيب كلاهما    لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه    واصبر لجهلك ان جفوت معلما

ولا يمنعه من ذلك علو منزلته اذ كانت له وان كان العالم خاملا فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال. وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر بن دريد

لا تحقرن عالما وان خلقت    أثوابه فى عيون رامقه
وانظر اليه بعين ذى أدب    مهذب الرأى فى طرائقه
فالمسك بينا تراه ممتهنا    بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه فى عارضى ملك    وموضع التاج من مفارقه

وليكن مقتديا بهم فى رضى أخلاقهم متشابها بهم فى جميع أفعالهم ليصير لها آلفا وعليها ناشئا ولما خالفها مجانبا فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم خيار شبابكم المشتبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المشتبهون بشبابكم * وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم * وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر بن دريد

العالم العاقل بن نفسه    أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدبا    فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره    مثل الذى تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته فقد قيل لبعض الحكماء من أذل الناس فقال عالم يجرى عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبى فقال لها من أنت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا

عالماضاع بين الجهال ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان فى ذلك
كفر النعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة فى نفسه لجودة ذكائه
وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازراء به وتبكيتا له
فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابى البطحاء

اعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين
وعند من قدموه مسترذلين * وقال صالح بن عبد القدوس

وان عناء أن تعلم جاهلا فيحسب جهلا انه منك أعلم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهى عن سيء من أتى به اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم

يا فاخرا للسفاه بالسلف وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب لان جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خير أب ذاك أبو الروح لا ابو الجيف

ولا ينبغى أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له
على التقليد فيما أخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع فى عالمهم حتى يروا أن قوله دليل
وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضى به الامر الى التسليم له فيما أخذ
عنه ويؤول به ذلك الى التقصير فيما يصدر منه لانه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه
فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة ان انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت
لانه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا
فيه فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة
مضعوفين ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر فى مجلس حفل وقد استدل عليه
الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال ان هذه دلالة فاسدة ووجه
فسادها ان شيخى لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فامسك عنه
المستدل تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى

هذا الجاهل ثم أقبل المستدل علی وقال لی والله لقد أفحمتنی بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة من بين مستهزیٔ ومتعجب ومستعيذ بالله من جهل مغرب فهل رأيت كذلك عالما اوغل فی الجهل وادل على قلة العقل واذا كان المتعلم معتدل الرای فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتی لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين بریٔ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الهجنتين وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتا ولا قبولا ما صح فی النفس تقليدا وقد روی عن النبی صلی الله عليه وسلم انه قال العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسئلوا رحمكم الله فانما يؤجر فی العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ وقال عليه الصلاة والسلام هلا سالوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العی السؤال فامر بالسؤال وحث عليه ونهی آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلی الله عليه وسلم انها كم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وقال عليه الصلاة والسلام اياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا مخالفا للاول وأنما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهی عنه من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السؤال فی موضعه ازال الشكوك ونفی الشبهة وقد قيل لابن عباس رضی الله عنهما بم نلت هذا العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول وروی نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما ان النبی صلی الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم وانشد المبرد عن ابی سليمان الغنوی

فسل الفقيه تكن فقيها مثله لا خير فی علم بغير تدبر
واذا تعسرت الامور فأرجها وعليك بالامر الذی لم يعسر

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم اعم الا ان يستوی النفعان فيكون الاخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره اولی لان الانتساب اليه اجمل والاخذ عنه اشهر وقد قال الشاعر

اذا انت لم يشهرك علمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذی قد حملته اتاك له من يجتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حمدت

من خبرته فلا تطلب من لم تختبره فان العدول عن القريب الى البعيد عناء وترك الاسهل بالاصعب بلاء والانتقال من المخبور الى غيره خطر وقد قال على بن ابى طالب رضى الله عنه عقبى الاخرق مضرة والمتعسف لا تدوم له مسرة * وقد قال بعض الحكماء القصد اسهل من التعسف والكف اوزع من التكلف وربما تتبع نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقار الما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطائل * وقد قالت العرب فى امثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء وانشدنى بعض شيوخنا المسيح بن حاتم

لا ترى عالما يحل بقوم ... فيحلوه غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة ... مجموعتين فى انسان
فاذا حلتا مكانا سحيقا ... فهما فى النفوس معشوقتان
هذه مكة العزيزة بيت الله ... يسعى لحجها الثقلان
وترى أزهد البرية فى الحج ... لها أهلها لقرب المكان

﴿ فصل ﴾ فاما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التى بهم أليق ولهم الزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل احد قبيح وبالعلماء اقبح لان الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو انهم نظروا واحق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم اولى ومجانبة العجب بهم احرى لان العجب نقص ينافى الفضل لا سيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ان العجب ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب فلا يفى ما ادركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب * وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا اذا اعجب برأيه * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم * وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء

فانه ليس متناه فى العلم الا وسيجد من هو اعلم منه اذ العلم اكثر من أن يحيط به بشر * قال الله تعالى نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم يعنى فى العلم قال أهل التاويل يعنى فوق كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك الى الله تعالى وقيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس وقال الشعبى ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى الا لقيته لم يذكر الشعبى هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن أن يحاط به فينبغى لمن علم أن ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه وقد قيل فى منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن أنظر الى من فوقك من العلماء وأنشدت لابن العميد

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به ... فى دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه أدبا ... ولينظرن الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجبا وبما ادركه منه مفتخرا الا من كان فيه مقلا ومقصرا لانه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده عن العجب به وقد قال الشعبى العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم أنه لم ينله وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً ومما أنذرك به من حالى انى صنفت فى البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسى وكددت فيه خاطرى حتى اذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت أننى أشد الناس اضطلاعا بعلمه حضرنى وأنا فى مجلسى اعرابيان فسألانى عن بيع عقداه فى البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا فاطرقت مفكراً وبحالى وحالهما معتبراً فقالا ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا واها لك وانصرفا ثم اتيا من يتقدمه فى العلم كثير من اصحابى فسألاه فاجابهما مسرعا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالهما وحالى معتبرا وانى لعلى ما كنت عليه فى تلك المسائل الى وقتى فكان ذلك اجر نصيحة وزنذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض لهما جناح العجب توفيقا منحته ورشدا أوتيته وحق على من ترك

العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ فى كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شر العى والحصر ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل وقال بعض الحكماء من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن زيادة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمى تناهيت عنده ... أطال فأملى أو تناهى فاقصرا

ويخبرنى عن غائب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه واذا لم يكن فى جهل بعضه عار لم يقبح به ان يقول لا أعلم فيما ليس يعلم وروى ان رجلا قال يا رسول الله اى البقاع خير واى البقاع شر فقال لا ادرى حتى اسال جبريل وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه وما ابردها على القلب اذا سئل احدكم فيما لا يعلم ان يقول الله اعلم وان العالم من عرف ان ما يعلم فيما لا يعلم قليل وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما اذا ترك العالم قول لا ادرى اصيبت مقاتله وقال بعض العلماء هلك من ترك لا ادرى وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم الا علمى بانى لست اعلم وقال بعض البلغاء من قال لا ادرى علم فدرى ومن انتحل الى ما يدرى اهمل فهوى ولا ينبغى للرجل وان صار فى طبقة العلماء الافاضل ان يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عنى فلو ركبتم الفلك ما وجدتموهن الا عندى الا لا يرجون احد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستنكف ان يتعلم ما ليس عنده واذا سئل احدكم عما لا يعلم فليقل لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لو كان أحد

مكتفيا من العلم لا كتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولما قال هل اتبعك على ان
تعلمن مما علمت رشدا وقيل للخليل بن احمد بم ادركت هذا العلم قال كنت اذا لقيت
عالما اخذت منه واعطيته وقال بزرجمهر من العلم ان لا تحقر شيا من العلم ومن العلم
تفضيل جميع العلم وقال المنصور لشريك انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل
استفيده ولم ابخل بكثير افيده على ان العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تاخر عنه
وليس للراغب فيه قناعة ببعضه وروى عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضى الله عنه
أنه قال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا أما طالب العلم فانه يزداد من الرحمن
قربا ثم قرأ انما يخشى الله من عباده العلماء وأما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ
كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها
ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهى عنها ولا يقنع من العلم بما ادرك لان القناعة فيه
زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل وقد قال بعض الحكماء عليك بالعلم والاكثار
منه فان قليله أشبه شىء بقليل الخير وكثيره أشبه شىء بكثيره ولن يعيب الخير الا القلة
فاما كثرته فانها أمنية وقال بعض البلغاء من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال
عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغى ان يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا ان يتجاوز
بها قدر حقها ولان يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد اولى من ان يكون بها مجاوزا
فيكف عن الازدياد لان من جهل حال نفسه كان لغيرها اجهل وقد قالت عائشة رضى
الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن
احمد أحوال الناس فيما علموه او جهلوه اربعة أقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها
فقال الرجال اربعة رجل يدرى ويدرى انه يدرى فذلك عالم فاسالوه ورجل يدرى
ولا يدرى انه يدرى فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدرى ويدرى انه لا يدرى فذلك
مسترشد فعلموه ورجل لا يدرى ولا يدرى انه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه
وانشد ابو القاسم الآمدى

اذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى ... يسائل من يدرى فكيف اذا تدرى
جهلت ولم تعلم بانك جاهل ... فمن لى بان تدرى بانك لا تدرى

اذا جئت فى كل الامور بنعمة — فكن هكذا ارضا يطاك الذى يدرى
ومن أعجب الاشياء نك لاتدرى — وانك لاتدرى بانك لاتدرى

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على ان تأتمر بما يأمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا وقد قال قتادة فى قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه يعنى لعامل بما علم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ويل لجماع القول ويل للمصريين يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر على نبينا وعليه السلام قال لموسى يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره وقال على بن أبى طالب انما زهد الناس فى طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف اذا وقفت بين يدى الله أن يقول قد علمت فماذا عملت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله * وقيل فى منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به وقال بعض العلماء ثمرة العلم ان يعمل به وثمرة العمل ان يؤجر عليه * وقال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل فان اجابه أقام والا ارتحل * وقال بعض الحكماء خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع * وقال بعض الادباء ثمرة العلوم العمل بالمعلوم وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد * وقال أبو تمام الطائى

ولم يحمدوا من عالم غير عامل — خلاقا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات المجد عوجا فظيعة — وافظع عجز عندهم عجز حازم

لانه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحج وله ألزم لان مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل * وقد قال أبو العتاهية رحمه الله

اسمع الى الاحكام تحملها — الرواة اليك عنكا
واعلم هديت بانها — حجج تكون عليك منكا

ثم ليتجنب أن يقول ما لا يفعل وان يأمر بما لا يأتمر وان يسر غير ما يظهر ولا يجعل

قول الشاعر هذا

اعمل بقولى وان قصرت فى عملى ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

عذراله فى تقصيره فيضره وان لم يضر غيره فان اعذار النفس يغريها ويحسن لها مساويها فان من قال مالا يفعل فقد مكر ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع ومن اسر غير ما يظهر فقد نافق * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المكر والخديعة صاحباهما فى النار على ان أمره بما لا يأتمر مطرح وانكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما أمره به عنادا وارتكاب مانهى عنه كيادا وحكى أن اعرابيا أتى ابن أبى ذئب فسأله عن مسئلة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت وقد بانت منك فولى الاعرابى وهو يقول

أتيت ابن ذئب أبتغى الفقه عنده فطلق حتى البت تبت انامله

اطلق فى فتوى ابن ذئب حليلتى وعند ابن ذئب أهله وحلائله

فظن بجهله انه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا وقال احمد بن يوسف

وعامل بالفجور يامر بالبر كهاد يخوض فى الظلم

كطبيب قد ناله سقم وهو يداوى من ذلك السقم

يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أولا فلا تلم

﴿وقال آخر﴾

عود لسانك قلة اللفظ واحفظ كلامك ايما حفظ

اياك ان تعظ الرجال وقد أصبحت محتاجا الى الوعظ

واما الانقطاع عن العلم الى العمل او الانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهرى فيه ما يغنى عن تكلف غيره وهو انه قال العلم افضل من العمل به لمن جهل والعمل افضل من العلم لمن علم * واما فضل ما بين العالم والعابد اذا لم يخل بواجب ولم يقصر فى فرض فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اتئد حتى تشفع للناس ومن آداب العلماء أن

لايبخلوا بتعليم مايحسنون ولا يمتنعوا من افادة مايعلمون فان البخل به لؤم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل ام كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زادوا نما وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولا نقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وتناقصها ارذالا وقد قال الله تعالى واذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من كتم علما يحسنه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار * وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه انه قال ما اخذ الله العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ العهد على اهل العلم ان يعلموا * وقال بعض الحكماء اذا كان من قواعد الحكمة بذل ماينقصه البذل فاحرى ان يكون من قواعدها بذل مايزيده البذل * وقال بعض العلماء كما ان الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم * وقد قيل فى منثور الحكم من كتم علما فكانه جاهله وقال خالد بن صفوان انى لافرح بافادتى المتعلم أكثر من فرحى باستفادتى من العلم * ثم له بالتعليم نفعان احدهما مايرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده * وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تعلموا العلم وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سواء قيل وما اجرهما قال مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة والنفع الثانى زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ماليس عندك * وقال ابن المعتز فى منثور الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن يخمدها ان لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك والبخل بما تعلم * وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا انت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت * واعلم ان المتعلمين ضربان مستدعى وطالب فاما المستدعى الى العلم فهو من استدعاه

العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك النجباء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته وذكائه مستكثر واما طالب العلم لداع يدعوه وباحث يحدوه فان كان الداعي دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم ان يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفي عليه مكنونا ولا يطوي عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي ان لا يمنعه من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فتظلموا ولا تضعوه في غير اهله فتأثموا * وقال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم احدا فان العلم امنع لجانبه فاما ان لم يكن الداعي دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرئاسة فالقول فيه يقارب القول الاول في تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين في ثاني الحال وان لم يكن مبتدئا به في اول حال * وقد حكي عن سفيان الثوري انه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فابى ان يكون الا لله * وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر باطن يريد ان يستعملهما في شبه دينية وحيل فقهية لا تجد اهل السلامة منهما مخلصا ولا عنهما معدلا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اهلك امتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد فقيل يارسول الله اي الناس شر فقال العلماء اذا فسدوا فينبغي للعالم اذا رأى من هذه حاله ان يمنعه من طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على امضاء مكره واكمال شره فقد روى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال واضع العلم في غير اهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر للخنزير فالعلم افضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير * وحكى ان تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس ولكل بناء واس * قال بعض البلغاء لكل ثوب لابس ولكل علم قابس * وقال بعض الادباء ارث لروضة توسطها خنزير وابك لعلم حواه شرير * وينبغي ان يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه

ويضعف عنه ببلادته فانه اروح للعالم وانجح للمتعلم * وقد روى ثابت عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا انا لم اعلم مالم ارى فلا علمت ما رأيت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه مالم ير بعينه وقال ابن الرومي

المعي يرى باول من رأى آخر الامر من وراء المغيب
لودعى له فؤاد ذكى ماله في ذكائه من ضريب
لا يروى ولا يقلب طرفا واكف الرجال في تقليب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا لم يضع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانو واياه في عناء مكد وتعب غير مجد لانه لا يعدم ان يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفي بالقليل فيضجر الذكى منه ويعجز البليد عنه ومن تردد اصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم * وقد حكى عبد الله بن وهب ان سفيان بن عبد الله قال قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم ان القائل أقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم يا موسى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ما تحشو افي وعائك وقال بعض الحكماء خير العلماء من لا يقل ولا يمل * وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع الآذان اذا قوى فهم القلوب في الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطيه ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغى ان يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما احب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثره فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الافكار مستوعب الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به وقد حكى الاصمعي رحمه الله قال قال لى الرشيد يا ابا عبد الملك انت اعلم منا ونحن اعقل منك فلا تعلمنا في ملا ولا تسرع الى تذكيرنا في خلاء واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد الا ان يستدعى ذلك منك وانظر الى

ماهو الطف فى التأديب وانصف فى التعليم وابلغ باوجز لفظ غاية التقويم وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتاخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطا او زلل فى قول او عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله واصلاح خلله *وحكى ان عبد الملك بن مروان قال للشعبى كم عطاءك قال ألفين قال لحنت قال لما ترك امير المؤمنين الاعراب كرهت ان اعرب كلامى عليه ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت اقدام العلماء فى ذلك رغبة او رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة بخير تحت يد الله وفى كنفه مالم يمال قراؤها امراءها ولم يزك صلحاؤها فجارها ولم يمار اخيارها اشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملا قلوبهم رعبا *ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كد المطالب فان شبه المكتسب اثم وكد الطلب ذل والاجر اجدر به من الاثم والعز أليق به من الذل *وانشدنى بعض اهل الادب لعلى بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى

يقولون لى فيك انقباض وانما ... رأوا رجلا عن موقف الذل احجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن اكرمته عزة النفس اكرما
ولم اقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل من لاقيت ارضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض مالا يشينها ... مخافة اقوال العدا فيم اولما
ولم ابتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا واجنيه ذلة ... اذن فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالاطماع حتى تجهما

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة

فيما يجدبدأ منه وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان وقال بعض العلماء لاسمير كالعلم ولا ظهير كالحلم ومن آدابهم ان يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بارشاد من ارشدوا من غير ان يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا فقد قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا قال ابو العالية لا تاخذوا عليه اجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أجر المعلم كاجر الصائم القائم وحسب من هذا اجره ان يلتمس اجرا ومن آدابهم يصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فان ذلك أعظم لاجرهم واسنى لذكرهم وانشر لعلومهم وارسخ لمعلومهم وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي كرم الله وجهه يا علي لان يهدي الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك ادعى اليهم واعطف عليهم واحث على الرغبة فيما لديهم * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه * ومن آدابهم ان لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العلم بانقراضهم فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الا انبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ماسواه الا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق

## ﴿ باب ادب الدين ﴾

اعلم ان الله سبحانه وتعالى انما كلف الخلق متعبداته والزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم لان نفع ماسوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على

نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفعى الدنيا والآخرة كان اعظم نعمة وأكثر تفضلا
وجعل ما تعبدهم به ماخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع
منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل
والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل
رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته
والزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما احله وحرمه وأباحه وحظره
واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من
العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة
والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع امرا بطاعة ونهيا عن معصية ولذلك كان
التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل كتابه من قصص الانبياء السالفة
وأخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك
من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذى نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى
رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان
محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه * قال الله
تعالى وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار الى اصوله
ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب
اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وقال الله
تعالى وما يعلم تاويله الا الله والراسخون فى العلم فصار الكتاب أصلا والسنة فرعا
واستنباط العلماء ايضاحا وكشفا * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال القرآن
أصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة
المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده ان اقدرهم على
ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد أعده لهم ناهضين بفعل الطاعات
ومجانبة المعاصى * قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال وما جعل عليكم
فى الدين من حرج * وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام قسما امرهم باعتقاده وقسما امرهم

بفعله وقسما امرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف ابعث على قبوله
واعون على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما امرهم باعتقاده قسمين قسما اثباتا وقسما
نفيا فاما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته واثبات بعثته رسله وتصديق محمد صلى
الله عليه وسلم فيما جاء به واما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح اجمع وهذان
القسمان اول ما كلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلاثة اقسام قسما على ابدانهم كالصلاة
والصيام وقسما في اموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على ابدانهم وفي اموالهم كالحج
والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم أداؤه فظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم
وجعل ما امرهم بالكف عنه ثلاثة اقسام قسما الاحياء نفوسهم وصلاح ابدانهم كنهيه
عن القتل واكل الخبائث وشرب الخمور المؤدية الى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم
واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضي الى القطيعة
والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم
فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما اباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما
مرنا به فهل يجد العاقل في رويته مساغا ان يقصر فيما امر به وهو نعمة عليه أو يرى
افسحة في ارتكاب مانهي عنه وهو تفضل عليه وهل يكون من أنعم عليه بنعمة فاهملها
مع شدة فاقته اليها الا مذموما في العقل مع ماجاء من وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه
وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل لهم من الثواب قسطا
وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه
ومن لطيف حكمته ان جعل لكل عبادة حالين حال كمال وحال جواز رفقا منه بخلقه لما
سبق في علمه ان فيهم العجل المبادر والبطيء المتثاقل ومن لا صبر له على اداء الاكمل
ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير قادح في فرض ولا مانع من اجر فكان ذلك من
نعمه علينا وحسن نظره الينا فكان اول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم
عبادات الابدان وقد قدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال اشح وبما
يتعلق بالابدان اسمح وذلك الصلاة والصيام فقدم الصلاة على الصيام لان الصلاة اسهل
فعلا وايسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع له رهبة منه
والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام احدكم الى

صلاته فانما يناجي ربه فلينظر بم يناجيه وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه
كان كلما دخل عليه وقت الصلاة اصفر لونه مرة واحمر اخرى فقيل له في ذلك فقال اتتني
الامانة التي عرضت على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها
وحملتها انا ولا ادري اسيء فيها ام احسن ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث
وازالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه
المنزل ليتدبر ما فيه من اوامره ونواهيه ويعتبر اعجاز الفاظه ومعانيه ثم علقها باوقات
راتبة وازمان مترادفة ليكون ترادف ازمانها وتتابع اوقاتها سببا لاستدامة الخضوع
له والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة
استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال
والتقصير فيها عن حال الجواز وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة مكيال
فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين وروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال من هانت عليه صلاته كان على الله تعالى عز وجل اهون وانشدت
لبعض الفصحاء في ذلك

أقبل على صلواتك الخمس ... كم مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة ... تمحو ذنوب صحيفة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلى ... فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان وكان
في ايجابه حث على رحمة الفقراء واطعامهم وسد جوعاتهم لما عانوه من شدة المجاعة
في صومهم وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام لم تجوع وانت على خزائن الارض
فقال اخاف ان أشبع فانسى الجائع ثم لما في الصوم من قهر النفس واذلالها وكسر
الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ما هي عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب
والمحتاج الى الشيء ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه
السلام وأمه الهين من دونه فقال ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل
وامه صديقة كانا يا كلان الطعام فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما عن ان يكونا
الهين وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى في قصصه نقص الانسان بالطعام

وغيره فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل مكتوم الامل مستور العالى يتكلم باحم
وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه تؤذيه البقة وتنتنه العرقة وتقتله
الشرقة لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فانظر الى لطفه بنا فيما
أوجبه من الصيام علينا كيف ايقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة او متغافلة وقمع
النفوس به ولم يكن لولاه منتفعة ولا نافعة ثم فرض زكاة الاموال وقدمها على فرض
الحج لان في الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة اسرع اجابة منها الى
الحج فكان في ايجابها مواساة للفقراء ومعونة لذوى الحاجات تكفهم عن البغضاء
وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الآمل وصول والراجى هائب واذا
زال الامل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث
التقاطع بين ارباب الاموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والاغنياء
حتى تقضى الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس هذا مع ما فى اداء الزكاة من تمرين
النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث على أداء الحقوق
والشح يصد عنها وما يبعث على أداء الحقوق فاجدر به حمدا وما صد عنها فاخلق به ذما
وقد روى ابو هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال شر ما اعطى العبد
شح هالع وجبن خالع فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته واخفى عن فطنتنا جزيل
نعمته حتى استوجب من الشكر باخفائها أعظم مما استوجبه بابدائها ثم فرض الحج
فكان آخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا فى مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض
الابدان وفروض الاموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى
تسهيل ما جمع بين النوعين فكان فى ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والاهل
وخضوع العزيز والذليل فى الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة
منه والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصى عما اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه وقل
من حج الا واحدث توبة من ذنب واقلاعا عن معصية ولذلك قال النبى صلى الله عليه
وسلم من علامة الحجة المبرورة ان يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا صحيح
لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما
كان يقدم عليه انبأ عن صحة توبته او صحة التوبة تقتضى قبول حجته ثم نبه بما يعانى فيه

من مشاق السفر المؤدى اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة وانسة الاوطان ليحنو على من سلب هذه النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم بمشاهدة حرمة الذى انشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التى اعز الله بها اهل طاعته واذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام اهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين انه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر الهمك الله الشكر ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك واحالتك على بصيرتك بعد ان كنت لك رائدا صدوقا وناصحا شفوقا هل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما امرك الله سبحانه وتعالى وتقبلت ما كلفك كلا انه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر فى المؤتنف * وقال الحسن بن على رضى الله عنهما نعم الله اكثر من ان تشترى الا ما اعان عليه وذنوب ابن آدم اكثر من ان تغفر الا ما عفى عنه * وانشدت لمنصور ابن اسماعيل الفقيه المصرى رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة * موجبة لشكره

فكيف شكرى بره * وشكره من بره

واذا كنت عن شكر نعمة عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما أمرك أو فرطت فيما كلفك ونفعه أعود عليك لو فعلته هل تكون لسوابغ نعمه الا كفورا او ببداية العقول الا مزجورا وقد قال الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها قال مجاهد أى يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آبائهم او اكتسبوها بافعالهم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله يا ابن آدم ما أنصفتنى أتحبب اليك بالنعم وتتمقت الى بالمعاصى خيرى اليك نازل وشرك الى صاعد كم من ملك كريم يصعد الى منك بعمل قبيح * وقال بعض صلحاء السلف قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندرى ايهما نشكر اجميل ما ينشر ام قبيح ما يستر فحق على من عرف موقع النعمة ان يقبلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون باداءها ثم يشكر الله تعالى على ما أنعم به من اسدائها فان بنا من الحاجة الى نعمه اكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان

نحن أدينا حق النعمة فى التكليف تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكاليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد أوتى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد على الاطلاق وان قصرنا فى آداء ما كلفنا من شكره سبحانه وتعالى قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له فى الحياة حظ ولا فى الموت راحة وهذا هو الشقى بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم * وقد قال الله تعالى ليس باما نيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به وروى الاعمش عن مسلم قال قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه يا رسول الله ما اشد هذه الآية من يعمل سوأ يجز به فقال يا أبا بكر ان المصيبة فى الدنيا جزاء واختلف المفسرون فى تاويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم احد العذابين الفضيحة فى الدنيا والثانى عذاب القبر * وقال عبد الرحمن بن يزيد احد العذابين مصائبهم فى الدنيا فى أموالهم واولادهم والثانى عذاب الآخرة فى النار وليس وان نال اهل المعاصى لذة من عيش أو ادركوا أمنية من الدنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة * وروى ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رايت الله تعالى يعطى العباد ما يشاؤن على معاصيهم اياه فانما ذلك استدارج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون * فاما المحرمات التى يمنع الشرع منها واستقر التكليف عقلا أو شرعا بالنهى عنها فتنقسم قسمين منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجرىء والثانى وعيد اجل يزدجر به التقى ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كاكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله فى الزجر عنها والشهوات مصروفة عنها وعن ركوب المحظور منها ثم أكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فاوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تاكيد الاوامره والنهى عن المنكر تاييد الزواجره لان النفوس الاشرة قد الهتها الصبوة عن اتباع الاوامر

واذهلتها الشهوات عن تذكار الزواجر فكان افكار المجانسين ازجر لها وتوبيخ المخالطين ابلغ فيها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما اقر قوم المنكر من امرين بين اظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر واذا كان ذلك فلا يخلو احال فاعلي المنكر احدها ان يكونوا آحادا متفرقين وافرادا متبددين لم يتحزبوا فيه ولم يتضافروا عليه وهم رعية مقهورون وافذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس ان أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه وسمعه من قائليه وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل او بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لانه لما وجب بالعقل ان يمتنع من القبيح وجب أيضا بالعقل ان يمنع غيره منه لان ذلك ادعى الى مجانبته وابلغ في مفارقته * وقد روى عبد الله بن المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فاخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا ما تصنع فقال هو مكاني أصنع فيه ما شئت فلم ياخذوا على يديه فهلك وهلكوا وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لان العقل لو اوجب النهي عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار اهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفي ورود الشرع بذلك دليل على ان العقل غير موجب لانكاره فاما اذا كان في ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب انكاره بالعقل على القولين معا فاما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه واقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع اما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التي لا يوازيها نفع واما الشرع فقد روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك اضعف الايمان * فان اراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا اظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشي بغالب الظن تلفا او ضررا ولم يحسن منه النكير ايضا وان كان في اظهار النكير اعزاز دين الله تعالى واظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وان انتصر او قتل وعلى

هذا الوجه قال النبي عليه السلام ان من أفضل الاعمال كلمة حق تقال عند سلطان جائر * فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يعترض لا فكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهى اغراء بفعل المنكر ولجاجا فى الاكثار منه قبح فى العقل افكاره والحالة الثانية ان يكون فعل المنكر من جماعة قد تضافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف الناس فى وجوب افكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من اصحاب الحديث وأهل الآثار لا يجب افكاره والاولى بالانسان ان يكون كافا ممسكا وملازما لبيته وادعا غير منكر ولا مستفز وقالت طائفة اخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب افكاره ولا التعرض لازالته الا ان يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا حينئذ اعوانه وقالت طائفة اخرى منهم الاصم لا يجوز للناس افكاره الا ان يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه من وجود اعوان يصلحون له فامامع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح فى العقل ان يتعرض له فهذا حكم ما اكد الله تعالى به اوامره وايد به زواجره من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يختلف من احوال الامرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو حال الناس فيما امروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصى من اربعة احوال فنهم من يستجيب الى فعل الطاعة ويكف عن ارتكاب المعاصى وهى اكمل احوال أهل الدين وافضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين روى محمد بن عبد الملك المدائنى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت وكما تدين تدان وقد قيل كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا ازرع يومك حصاد غدك ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصى وهى اخبث احوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا يستحق عذاب اللاهى عن فعل ما امر به من طاعته وعذاب المجترىء على ما اقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمى من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمى من المعاصى مخافة النار فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد افنيته بالحمى * دهرا من البارد والحار

وكان اولى بك ان تحتمى * من المعاصى حذر النار

وقال ابن ضبارة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى اهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضى الله عنه رضى الله عنك فقال كيف يرضى عنى ولم ارضه * ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب المجترىء لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير فى فعل الطاعة * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اقلعوا عن المعاصى قبل أن ياخذكم الله فيدعكم هتا بتا (الهت الكسر والبت القطع) * ولذلك قال بعض العلماء افضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه * وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمى من الاطعمة لمضراتها كيف لا يحتمى من الذنوب لمعراتها * وقال بعض الصلحاء أهل الذنوب مرضى القلوب * وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله ما اعجب الاشياء فقال قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه * وقال بعض الالباء يدل بالطاعة العاصى وينسى عظيم المعاصى * وقال رجل لابن عباس رضى الله عنهما ايما احب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضى الله عنهما لا أعدل بالسلامة شيئا * وقيل لبعض الزهاد ما تقول فى صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم اهلككم النوم فقال بل اهلكتكم اليقظة * وقيل لابى هريرة رضى الله عنه ما التقوى فقال اجزت فى ارض فيها شوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت اتوقى قال فتوق الخطايا * وقال عبد الله بن المبارك

ايضمن لى فتى ترك المعاصى * وارهنه الكفالة بالخلاص

اطاع الله قوم واستراحوا * ولم يتجرعوا غصص المعاصى

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب اللاهى عن دينه المنذر بقلة يقينه * وروى ابو ادريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (كانت صحف موسى على نبينا وعليه السلام) كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن ايقن بالقدر ثم يتعب

وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها باهلها ثم يطمئن اليها وعجبت لمن ايقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل * وروى عن النبى عليه السلام انه قال اجتهدوا فى العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصى وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصى ترك وهو اسهل وعمل الطاعات فعل وهو اثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر لانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه وانما اباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه * وقال بكر بن عبد الله رحم الله امرأ كان قويا فاعمل قوته فى طاعة الله تعالى او كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى * وقال عبد الاعلى بن عبد الله الشامى رحمه الله تعالى

العمر ينقص والذنوب تزيد * وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد * رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهى * تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم ان لاعمال الطاعة ومجانبة المعاصى آفتين احداهما تكسب الوزر والاخرى توهن الاجر فاما المكسبة للوزر فاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لان الاعجاب يفضى الى حالتين مذمومتين احداهما ان المعجب بعمله ممتن به والممتن على الله تعالى جاحد لنعمه * قال ابن عباس رضى الله عنهما اوحى الله تعالى الى نبى من انبيائه اما زهدك فى الدنيا فقد استعجلت به الراحة واما انقطاعك الى فهو عزلك فهذا ان لك وبقيت انا والثانية ان المعجب بعمله مدل به والمدل بعمله مجترىء والمجترىء على الله عاص * وقال مورق العجلى خير من العجب بالطاعة ان لا تاتى بطاعة * وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه * واما الموهنة للاجر فالثقة بما اسلف والركون الى ما قدم لان الثقة تؤل الى امرين احدهما يحدث اتكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن تقصر واتكل لم يرج اجرا ولم يؤد شكرا والثانى ان الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه اوامره وسهلت عليه زواجره * وقال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى * وقال مورق العجلى لان ابيت نائما واصبح نادما احب الى من ان أبيت قائما واصبح ناعما * وقال الحكماء ما بينك وبين ان لا يكون

فيك خير الا ان ترى ان فيك خيرا * وقيل لرابعة العدوية رحمها الله هل عملت عملا قط
ترين انه يقبل منك قالت ان كان شيء نخوفي من ان يرد على عملي * وقال ابن السماك رحمة
الله عليه انا لله فيما مضى ما اعظم فيه الخطر وانا لله فيما بقي ما اقل منه الحذر * وحكى ان
بعض الزهاد وقف على جمع فنادى باعلى صوته يا معشر الاغنياء لكم اقول استكثروا
من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة ويا معشر الفقراء لكم اقول اقلوا من الذنوب فان
حسناتكم قليلة * فينبغي احسن الله اليك بالتوفيق ان لا تضيع صحة جسمك وفراغ
وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك
والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعدا ولا مافات مستدركا وللفراغ زيغ
او ندم وللخلوة ميل او اسف * وقال عمر بن الخطاب الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة
وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة * وقال بعض الحكماء اياكم
والخلوات فانها تفسد العقول وتعقد المحلول * وقال بعض البلغاء لا تمض يومك في غير
منفعة ولا تضع مالك في غير صنيعة فالعمر اقصر من ان ينفد في غير المنافع والمال اقل
من ان يصرف في غير الصنائع والعاقل اجل من ان يفني ايامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره
وينفق امواله فيما لا يحصل له ثوابه واجره وابلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا
وعليه السلام البر ثلاثة المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا
ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لها واعلم ان للانسان
فيما كلف من عباداته ثلاث احوال احداها ان يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة
عليها والثانية ان يقصر فيها والثالثة ان يزيد عليها فاما الحال الاولى فهي ان ياتي بها على
حال الكمال من غير تقصير فيها ولا زيادة تطوع على راتبتها فهي اوسط الاحوال واعدلها
لانه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز * وقد روى سعيد بن ابي سعيد رضي
الله عنه عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال سددوا وقاربوا
ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة * وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

واما الحال الثانية وهو ان يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من اربعة احوال احداهن
ان يكون لعذر اعجزه عنه او مرض اضعفه عن اداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم

المقصرين ويلحق باحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط مادخل تحت العجز * وقد جاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله * والحال الثانية ان يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظن ذخرا والرجاء عدة فهو كمن قطع سفرة بغير زاد ظنا بانه سيجده فى المفاوز الجدبة فيفضى به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر اغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه * وحكى ان اسرائيل بن محمد القاضى قال لقينى مجنون كان فى الخرابات فقال يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه * وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله ألا تبكى فقال تلك حلية الآمنين * وحكى ان اباحازم الاعرج اخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان اين رحمة الله قال قريب من المحسنين * وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه اما بعد فان الانسان ليسره درك مالم يكن ليفوته ويسوؤه فوت مالم يكن ليدركه فلا تكن بما نلته من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الامل فكان قد والسلام وقال محمود الوراق رحمه الله

اخاف على المحسن المتقى * وارجو لذى الهفوات المسى
فذلك خوفى على محسن * فكيف على الظالم المعتدى
على ان ذا الزيغ قد يستفيق * ويستانف الزيغ قلب التقى

والحال الثالثة ان يكون تقصيره فيه ليستوفى ما اخل به من بعد فيبدأ بالسيئة فى التقصير قبل الحسنة فى الاستيفاء اغترارا بالامل فى امهاله ورجاء لتلاقى ما اسلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهى به الامل الى غاية ولا يفضى به الى نهاية لان الامل هو فى ثانى حال كهو فى اول حال فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من يؤمل ان يعيش غدا فانه يؤمل ان يعيش ابدا ولعمرى ان هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذن يفضى به الامل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصير الامل خيبة والرجاء ياسا وقد روى عمرو بن سعيد عن ابيه عن جده ان النبى صلى الله عليه وسلم قال

اول صلاح هذه الامة بالزهد واليقين وفسادها بالبخل والامل وقال الحسن البصرى رحمه الله ما أطال عبد الامل الا اساء العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما احب ان ابسط املى الى ان تذهب الى بغداد وتجىء. وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على امله والعاقل يعتمد على عمله . وقال بعض البلغاء الامل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه. وقال محمد بن يزدان دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هى فى يد أمير المؤمنين فرمى بها الى فاذا فيها مكتوب

انك فى دار لها مده — يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها — يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذنب لما تشتهى — وتامل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا بغتة — ماذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من احكم شعر قرأته . وقال ابو حازم الاعرج نحن لا نريد ان نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت. وقال بعض البلغاء زائد الامهال زائد الاهمال. والحال الرابعة ان يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء وزهدا فى التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث بما بقى فهذا على ثلاثة أضرب (احدها) ان يكون ما أخل به وقصر فيه غير قادح فى فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر فى العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها وأخل بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسىء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لان اداء الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر

ويصون توبته ويترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ماصان الفتى ورعى أمانته ودينه

والضرب الثانى ان يكون ما اخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدح ترك ما بقى فيما مضى كمن اكمل عبادات واخل بغيرها فهذا اسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب. والضرب الثالث ان يكون ما أخل به من مفروض عبادته وهو

قادح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لاخلاله بما بقي فهذا اسوأ احوال المقصرين وحاله لاحقة باحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف ما لا يفيد فصار من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لعله لا يفطن لشأنه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله ان وهى واختل. وأنشدني بعض اهل العلم

أبني ان من الرجال بهيمة  في صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة في ماله  واذا يصاب بدينه لم يشعر

واما الحال الثالثة وهو ان يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة اقسام. احدها ان تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس في الاخيار وهو ضدهم وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائي بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك كلابس ثوب زور يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوب زور هو الذي يلبس ثياب الصلحاء فهو برياءه محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا قال جميع اهل التاويل معنى وقوله سبحانه وتعالى ولا يشرك بعبادة ربه احدا أي لا يرائي بعمله احدا فجعل الرياء شركا لانه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غير الله تعالى. وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء. وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يتأول قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ان العدل استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى والاحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر ان تكون علانيته احسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان الصبر على امره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وايتاء ذي القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشاء يعني الزنا والمنكر القبائح والبغي

الكبر والظلم وليس يخرج الرياء بالاعمال من هذا التاويل ايضا لانه من جملة القبائح. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أخوف ما أخاف على امتى الرياء الظاهر والشهوة الخفيفة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى ان فيه خيرا ولا خير فيه وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا تعمل شيا من الخير رياء ولا تتركه حياء وقال بعض العلماء كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء وقد يفضى الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى ان طاهر بن الحسين قال لابى عبد الله المروزى منذ كم صرت الى العراق يا أبا عبد الله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وانا منذ ثلاثين سنة صائم فقال يا أبا عبد الله سألتك عن مسالة فاجبت عن مسالتين. وحكى الاصمعى رحمه الله تعالى ان اعرابيا صلى فاطال والى جانبه قوم فقالوا ما أحسن صلاتك فقال وأنا مع ذلك صائم

صلى فاعجبنى وصام فرابنى  نح القلوص عن المصلى الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما ادله على سخف عقل صاحبه وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذى حكى ان زاهدا نظر الى رجل فى وجهه سجادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من اجوبة الخلاعة التى يدفع بها تهجين المذمة ولقد استحسن الناس من الاشعب بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض اهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها رياء فتخلص من تنقيصهم بنفى الرياء عن نفسه ورفع التصنع فى صلاته وقد كان الافكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به ومر ابو امامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلى وهو يبكى فقال له أنت انت لو كان هذا فى بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لانه اتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء اغلب صفاته واشهر سماته مع انه آثم فيما عمل واثم من هبوب النسيم مما حمل ولذلك قال عبد الله ابن المبارك افضل الزهد اخفاء الزهد وربما احس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراآة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراآة فكان ذلك ابلغ فى فضله وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظى عظنى فقال لا ارضى نفسى لك واعظا لانى اجلس بين الغنى والفقير فاميل على الفقير واوسع للغنى ولان طاعة الله تعالى فى العمل لوجهه

لا لغيره. وحكى ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق فقال ههنا وأومأ بيده الى السماء

والقسم الثانى ان يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تثمره مجالسة الاخيار الافاضل وتحدثه مكاثرة الاتقياء الاماثل. ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل. فاذا كاثرهم المجالس وطولهم المؤانس احب ان يقتدى بهم فى افعالهم ويتأسى بهم فى اعمالهم ولا يرضى لنفسه ان يقصر عنهم ولا أن يكون فى الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة فيصيرون سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول لولا الوئام لهلك الانام أى لولا ان الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدى بهم فى الخير لهلكوا. ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار مودة الاشرار وهذا صحيح لان للمصاحبة تاثيرا فى اكتساب الاخلاق فتصلح اخلاق المرء بمصاحبة اهل الصلاح وتفسد بمصاحبة اهل الفساد ولذلك قال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح اهله * ويعديهم داء الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد

وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر الخوارزمى

لا تصحب الكسلان فى حالاته * كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

والقسم الثالث ان يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة فى الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعى الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك افضل احوال العاملين واعلى منازل العابدين وقد قيل الناس فى الخير اربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتدأ فهو كريم ومن فعله اقتدا فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردىء ومن تركه حرمانا فهو شقى ثم لما يفعله من الزيادة حالتان. احداهما أن يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهى أفضل الحالتين واعلى المنزلتين عليها انقرض اخيار السلف وتتبعهم فيها فضلاء الخلف. وقد روت عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى

الله عليه وسلم قال ايها الناس افعلوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وأنت السابق الجواد ولان من كان صحيح الرغبة فى ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا فى طاعته. وقال عبد الله بن المبارك لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا أعصى الله فيه فهو يوم عيد انظر الى هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما ابلغه فى حب الطاعة واحثه على بذل الاستطاعة. وخرج بعض الزهاد فى يوم عيد فى هيئة رثة فقيل لم تخرج فى مثل هذا اليوم فى مثل هذه الهيئة والناس متزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته. والحالة الثانية ان يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لان الاستكثار من الزيادة اما ان يمنع من اداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وبنفل منع فرضا واما ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير فى فرض فهى اذا قصيرة المدى قليلة اللبث ولقليل العمل فى طويل الزمان افضل عند الله عز وجل من كثير العمل فى قليل الزمان لان المستكثر من العمل فى الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار فى زمان تركه لاهيا اوساهيا والمقلل فى الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار. وقد روى ابو صالح عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان للاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن اشير اليه بالاصابع فلا تعدوه فجعل للاسلام شرة وهى الايغال فى الاكثار وجعل للشرة فترة وهى الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما اثبت من ان تكون هذه الزيادة تقصيرا او اخلالا ولا خير فى واحد منهما. واعلم جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك ان الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فروض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتامن فجعاتها فقد قيل المرء مفترض من عمره المنقرض مع ان العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير وأنشدت لعلى بن محمد رحمه الله تعالى

اذا كملت للمرء ستون حجة ... فلم يحظ من ستين الا بسدسها
الم تر ان النصف بالليل حاصل ... وتذهب اوقات المقيل بخمسها

فتاخذ اوقات الهموم بحصة　　واوقات اوجاع تميت بمسها
فحاصل مايبقى له سدس عمره　　اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على احوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهى لتسهيل مايليها سبب
(فالحالة الاولى) ان تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن اخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوق الركون اليها ولا تكن آمنا لها. فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من أشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط منها بشغل لا يفرغ عناه وامل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه. وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لابليس مزرعة وأهلها له حراث. وقال على بن ابى طالب مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما ايقنت من فراقها وكن احذر ما تكون لها وانت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمان منها الى سرور أشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس أزاله عنها ايحاش وقال بعض البلغاء الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلى من محنة فاعرض عنها قبل ان تعرض عنك واستبدل بها قبل ان تستبدل بك فان نعيمها يتنقل واحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى. وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتاملها تامل العاشق الوامق بها. وقال بعض الشعراء

الا انما الدنيا كاحلام نائم　　وما خير عيش لا يكون بدائم
تامل اذا مانلت بالامس لذة　　فافنيتها هل انت الا كحالم
فكم غافل عنه وليس بغافل　　وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من هوان الدنيا على الله ان لا يعصى الا فيها ولا ينال ماعنده الا بتركها. وروى سفيان ان الخضر قال لموسى عليهما السلام ياموسى اعرض عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد. وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقال على كرم الله وجهه يصف الدنيا اولها عناء وآخرها

فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها امن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها اتته ومن نظر اليها أعمته ومن نظر بها بصرته. وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر أدبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول نخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ان ارضيت احدهما اسخطت الاخرى. وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء الدنيا اما نقمة نازلة واما نعمة زائلة. وقيل فى منثور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل . وقال الشاعر

تمتع من الايام ان كنت حازما ... فانك منها بين ناه وآمر
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن ذر من جناح لطائر
فما رضى الدنيا ثوابا للمؤمن ... ولا رضى الدنيا جزاء لكافر

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل عنك فدعوا مايزول واتعبوا انفوسكم فى العمل لما لا يزول . وقال عيسى بن مريم عليه السلام لا تنازعوا أهل الدنيا فى دنياهم فينازعوكم فى دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم ابقيتم وقال على بن ابى طالب لا تكن ممن يقول فى الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فان اعطى منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما اوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى ويامر بما لا ياتى يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض الطالحين وهو منهم. وقال الحسن البصرى الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح. وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع اسباب الهوى عن قلبك واجعل ابعد املك بقية يومك وكن كانك ترى ثواب اعمالك. وقال بعض الحكماء الدنيا امامصيبة موجعه وامامنية مفجعه وقال الشاعر

خل دنياك انها ... يعقب الخير شرها

هی ام تعق من　　نسلها من يبرها
كل نفس فانها　　تبتغى ما سرها
و لمنايا تسوقها　　والامانى تغرها
فاذا استحلت الجنى　　أعقب الحلو مرها
يستوى فى ضريحه　　عبد ارض وحرها

فاذ رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها بثلاث خلال . احداهن ان تكفى اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة. والثانية ان تامن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهى بها مغرور والمغرور فيها مذعور والثالثة ان تستريح من تعب السعى لها ووصب الكد فيها فان من احب شيا طلبه ومن طلب شيا كدله والمكدود فيها شقى ان ظفر ومحروم ان خاب. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فعتقها وموبق نفسه فوثقها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وانتم لا ترزقون فيها الا بعمل. وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا أن لا تبقى على حالة ولا تخلو من استحالة تصلح جانبا بافساد جانب وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالركون اليها خطر والثقة بها غرر: وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا ياتى على شىء الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضى ولما بلغ مزدك من الدنيا أفضل ماسمت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا أنه هلك وغنا لولا أنه فنا وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود وغنى لولا أنه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغد . وقال بعض الحكماء قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت وقال ابو العتاهية

هى الدار دار الأذى والقذى　　ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها　　لمت ولم نقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود　　وطول الخلود عليه ضرر
اذ ما كبرت و بان الشباب　　فلا خير فى العيش بعد الكبر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا او الدجال فهو شر غائب ينتظر او الساعة والساعة ادهى وأمر . وحكى ان الله تعالى اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام ان هب لى من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فانى قريب وقال عيسى بن مريم عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه وقال بعض البلغاء زد من طول املك فى قصير عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق : وقال بعض الحكماء لا يؤمننك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا دولة لك من اداله منك وقال آخر مامضى من الدنيا كالم يكن ومابقى منها كما قد مضى وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال أيقنت انى أخرج منها كارها فرأيت ان اخرج منها طائعا وقيل لحرقة بنت النعمان مالك تبكين فقالت رأيت لاهلى غضارة ولم تمتلئ دار فرحا الا امتلأت ترحا. وقال ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها وقال صاحب كليلة ودمنة طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات

نهارك يامغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والاسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سر باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غبه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا أراك الله مكروها فقال كانك دعوت على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلابد أن يرى مكروها وقال أبو العتاهية

ان الزمان ولو يلين ... لاهله لمخاشن
خطواته المتحركات ... كانهن سواكن

(والحالة الثانية) من أحوال رياضتك لها ان تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها وأنالتك من غرائبها فتعلم أن العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد ان تبقى عليك ما احتقبت من أوزار وصولها اليك وخسران خروجها عنك فقد روى عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزول قدما ابن ادم حتى يسئل عن ثلاث شبابه فيم أبلاه وعمره فيم افناه وماله من اين اكتسبه وفيم انفقه وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال في المال ثلاث خصال قالوا وماهن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه في غير حقه قالوا فان وضعه في حقه قال يشغله عن عبادة ربه ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تاخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين وعيرت اليهود عيسى ابن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغنى دهيتم ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال لو كانت الدنيا دار مقام لاتخذنا لها اثاثا وقيل لبعض الزهاد الا توصى قال بماذا أوصى والله ما للناس شيء ولا لنا عند احد شيء ولا لاحد عندنا شيء انظر الى هذه الراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة. وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام الا تتزوج فقال انما نحب التكاثر في دار البقاء وقيل لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حمارا فقال انا اكرم على الله من ان يجعلني خادم حمار وقيل لابي حازم رضي الله عنه ما مالك قال شيئان الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف اكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وقال بعض الحكماء رب مغبوط بمسرة هي دواؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه . وقال بعض الادباء الناس أشتات ولكل جمع شتات وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثراء ومن قوى دينه أيقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة . وقال بعض الشعراء

رب مغروس يعاش به عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه أقرب الاشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمد عليك فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مافون والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات

كسبه والثالثة انتهاز الفرصة في مالك أن تضعه في حقه وأن تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا فقد روى أن رجلا قال يارسول الله انى أكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المؤمن عند ماله وقالت عائشة رضى الله عنها اذ بحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يارسول الله مابقي الا كتفها قال كلها بقي الا كتفها وحكى ان عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين الف درهم فقيل له اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله عز وجل واجعل الله ذخر الولدى وتصدق بها وعوتب سهل بن عبد الله المروزى في كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا أراد أن ينتقل من دار الى دار أكان يبقى في الاولى شيا . وقال سليمان ابن عبد الملك لأبي حازم مالنا نكره الموت قال لانكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب . وقيل لعبد الله بن عمر ترك زيد بن خارجة مائة ألف درهم فقال لكنها لاتتركه . وقال الحسن البصرى رحمه الله ما انعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وقال أبو حازم ان عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد ما زوى عنا . وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم . وقال ابراهيم نعم القوم السؤال يدقون ابوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيا وقال سعيد بن المسيب مر بى صلة بن اشيم فما تمالكت أن نهضت اليه فقلت يا أبا الصهباء أدع لى فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذى لاتسكن النفس الا اليه ولا يعول في الدين الا عليه ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال وددت انى كنت غسالا لا أعيش الا بما اكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك اباحازم فقال الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ماهم فيه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فافنيت أو لبست فابليت او أعطيت فامضيت وقال خالد بن صفوان بت ليلتى اتمنى فكسبت البحر الاخضر والذهب الاحمر فاذا يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطمران وقال مورق العجلى يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لاتحزن تطلب مايطغيك وعندك

مايكفيك . وقال ابو حازم انما بيننا وبين الملوك يوم واحد اما امس فقد مضى فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال بعض السلف تعزعن الشئ اذا منعته لقلة مايصحبك اذا اعطيته . وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها اهون من رفضها بعد ملابستها . وقال آخر ليكن طلبك الدنيا اضطرارا وتذكرك فى الامور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا وقال آخر الزاهد لايطلب المفقود حتى يفقد الموجود . وقال آخر من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى . وقال آخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر . وقال ابو العتاهية

أرى الدنيا لمن هى فى يديه ... عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شئ فدعه ... وخذ ما أنت محتاج اليه

وحكى الاصمعى رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر فى كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرنى قال أرأيت ما كان منى قلت نعم يا أمير المؤمنين فقال أما انه لو كان لامر الدنيا ما كان هذا ثم رمى الى بالقرطاس فاذا فيه شعر ابى العتاهية رحمه الله تعالى

هل أنت معتبر بمن خربت ... منه غداة قضى دساكره
وبمن اذل الدهر مصرعه ... فتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه اسرته ... وتعطلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم ... صاروا مصيرا أنت صائره
يامؤثر الدنيا للذته ... والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدالك أن تنال من ... الدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمة الله عليه والله لكانى أخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الايسيرا حتى مات رحمه الله ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لايطيل لك الامل اجلا قصيرا

ولا ينسيك موتا ولا نشورا * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه أيها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان تبلى وان الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات . وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله ولو رأيتم الأجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله عليه وسلم من أكيس الناس قال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه أيها الناس اتقوا الله الذى ان قلتم سمع وان أضمرتم علم وبادروا الموت الذى ان هربتم أدرككم وان أقمتم اخذكم وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شىء الا والموت أشد منه وليس بعد الموت شىء الا والموت ايسر منه . وقال بعض الحكماء ان للباقى بالماضى معتبرا وللآخر بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يفتر بالطمع وقال بعض الصلحاء ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فناءك الذى لا يبقى لبقائك الذى لا يفنى وقال بعض العلماء أى عيش يطيب وليس للموت طبيب وقال بعض البلغاء كل امرىء يجرى من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة أجله وتنطوى عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف عن سيئاتك وزد فى حسناتك قبل أن تستوفى مدة الاجل وتقصر عن الزيادة فى السعى والعمل وقيل فى منثور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له وقال ابو العتاهية

ما للمقابر لا تجيـ ... ـب اذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة عليـ ... ـهن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان وأطـ ... ـفال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن ... نفسى بفرقته تطيب
غادرته فى بعضهن ... مجندلا وهو الحبيب

وسلوت عنه وانما عهدى برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال أقلل من الدنيا تعش حرا وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى عظني وأوجز فقال اعلم انك أول خليفة يموت وعزى اعرابى رجلا عن ابن صغير له فقال الحمد لله الذى نجاه مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر وقال بعض السلف من عمل للآخرة احرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة وقال بعض الصلحاء استغنم تنفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك فى أجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود وقال بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع المحذور. وقال بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك وروى عن على بن ابى طالب رضى الله عنه انه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

غر جهولا أمله يموت من جا اجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر قد غاب عنه اوله
والمرء لا يصحبه فى القبر الا عمله

(وقال أبو العتاهية)

لا تامن الموت فى لحظ ولا نفس وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال . احداهن ان تكفى تسويف أمل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان تسويف الامل غرار وتسويل المحال ضرار والثانية ان تستيقظ لعمل آخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير عملك فان من قصر امله واستقل اجاله حسن عمله والثالثة ان يهون عليك نزول ماليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ماليس الى دفعه سبيل فان من تحقق أمرا توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لابى ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف

عن النوم جنبك واتق الله ربك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابى ذر رضى الله عنه عظنى فقال ارض بالقوت وخف من الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه مارأيت يقينا لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين انا لحمقى ولئن كنا جاحدين انا لهلكى. وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان أحسنت اليه ارتحل بحمدك وان أسات اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك. وقال الجاحظ فى كتاب البيان وجد مكتوبا فى حجر يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من اجلك لزهدت فى طويل ماترجو من أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قدزلت بك قدمك أسلمك اهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب. ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له اتفرح بالموت فقال اتجعلون قدومى على خالق ارجوه كمقامى مع مخلوق اخافه وقيل لابى بكر الصديق رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه لو ارسلت الى الطبيب فقال قد رآنى قالوا فما قال لك قال قال انى فعال لما اريد وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل ندعو لك بالطبيب قال قد اردت ذلك فذكرت عادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعا. وسئل انوشروان متى يكون عيش الدنيا ألذ قال اذا كان الذى ينبغى ان يعمله فى حياته معمولا وقال بعض الحكماء من ذكر المنيه نسى الامنية . وقال بعض الادباء عن الموت تنسل وهو كريشة تسل وقال بعض البلغاء الامل حجاب الاجل وانشد بعض اهل الادب ماذكر انه لعلى رضى الله عنه

فلو كنا اذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا ... ونسئل كلنا عن كل شئ

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

الا انما الدنيا مقيل لراكب ... قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح ولايدرى علام قدومه ... الا كل ماقدمت يبقى موفرا

وروى سعيد بن مسعود رضى الله عنه ان ابا الدرداء رضى الله عنه قال يارسول الله أوصنى فقال صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم

يوم واعدد نفسك من الموتى وكتب الربيع بن خيثم الى أخ له قدم جهازك وافرغ من زادك وكن وصى نفسك والسلام وقال بعض السلف أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها ومر محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ماقدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه والشقى من جمع لغيره وبخل على نفسه وقال بعض البلغاء لاتبت عن غير وصية وان كنت من جسمك فى صحة ومن عمرك فى فسحة فان الدهر خائن وكل ماهو كائن كائن وقال بعض الشعراء

من كان يعلم أن الموت مدركه  والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات ستبهجه  يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شىء سوى التقوى به سمج  وما أقام عليه منه اسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا  لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه ايها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه واجل قد بقى لايدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وانتم خلقتم للآخرة فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه امس اجل واليوم عمل وغدا امل فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا

ليس فيما مضى ولا فى الذى لم  يأت من لذة لمستحليها
انما انت طول عمرك  ماعمرت فى الساعة التى انت فيها
قنع النفس بالكفاف والا  طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشى على العصا ولست بكبير ولا مريض فقال انى أعلم انى مسافر وانها دار بلغة وان العصا من آلة السفر فاخذه بعض الشعراء فقال

حملت العصا لا الضعف أوجب  حملها على ولا أنى تحنيت من كبر

ولكننى ألزمت نفسى حملها　　لاعلمها أنى مقيم على السفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة وقال ذو القرنين عليه السلام رتعنا فى الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأخرجنا منها كارهين وقال عبد الحميد المرء أسير عمر يسير وقيل فى بعض المواعظ عجبا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصى وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل وقال بعض الحكماء المسئ ميت وان كان فى دار الحياة والمحسن حى وان كان فى دار الاموات وكل بالاثر يومه أوغده وقال بعض السلف الله المستعان على السنة تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما وقال آخر اعملوا لآخرتكم فى هذه الايام التى تسير كانها تطير وقال آخر الموت قصاراك فخذ من دنياك لاخراك وقال آخر عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كانه قد غفر ولقد امهل حتى كانه قد اهمل وقال آخر الايام صحائف اعمالكم فخلدوها اجمل افعالكم وقيل فى منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ماطلعت شمس الا وعظت بأمس وقال محمد بن بشير رحمه الله

مضى يومك الادنى شهيدا معدلا　　ويومك هذا بالفعال شهيد

فان تك بالامس اقترفت اساءة　　فثن باحسان وأنت حميد

ولا ترج فعل الخير منك الى غد　　لعل غدا يأتى وأنت فقيد

وروى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مارأيت مثل الجنة نام طالبها ومارأيت مثل النار نام هاربها وقال عيسى بن مريم عليهما السلام الا ان أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاماتوا منها ماخشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ماعلموا انه سيتركهم وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها فى نحره فانه ربما ادرك الذى يطلبه منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها ودخل ابو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال ياأهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا اليه فقال مالى اراكم تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح املهم غرورا

وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا وقال ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجاهم الموت نخلفوا اموالهم لمن لا يحمدهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغي ان ننظر للذى كرهناه منهم فنجتنبه والذى غبطناهم به فنستعمله ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ماهذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فاعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لشتى وقال بعض الحكماء ما أنصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد فى الاجر والثواب وقال آخر بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب وقال آخر اياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والاولى وقال آخر قصر املك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبر يسير وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله

نسير الى الآجال فى كل ساعة ... وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم نر مثل الموت حقا كانه ... اذا ما تخطته الامانى باطل
وما اقبح التفريط فى زمن الصبا ... فكيف به والشيب فى الرأس شامل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى ... فعمرك ايام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت ... واكدح لنفسك أيها الانسان
فكان ماقدكان لم يك اذمضى ... وكان ماهو كائن قدكانا (فيه أقواء)

ونظر سليمان بن عبد الملك يوما فى المرآة فقال أنا الملك الشاب فقالت له جارية له

أنت نعم المتاع لوكنت تبقى ... غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما بدالنا منك عيب ... كان فى الناس غير أنك فانى

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم اجداثهم ونأكل تراثهم كانا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم

أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أدب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قلة ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الاجساد الخاوية موعظة بليغة وحفر الربيع ابن خيثم فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قسوة جاء فاضطجع فى القبر فمكث فيه ماشاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فجدى فمكث كذلك ماشاء الله وقال أبو محرز الطفاوى كفتك القبور مواعظ الامم السالفة وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات قال النظر الى محلة الاموات فاخذه أبو العتاهية فقال

وعظتك أجداث صمت ... ونعتك أزمنة خفت

وتكلمت عن أوجه ... تبلى وعن صور سبت

وأرتك قبرك فى الحيا ... ة وأنت حى لم تمت

* ياشامتا بمنيتى ... ان المنية لم تفت

فلربما انقلب الشما ... ت فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوب قهر فامن قهر نافصر فاللناظرين عبرة وعلى آخر من أمل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور وقيل فى منثور الحكم ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت وقال بعض الصلحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بمآله وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول احد وقال بعض البلغاء ما نقصت ساعة من أمسك الا ببضعة من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال

ان مع الدهر فاعلمن غدا ... فانظر بما ينقضى مجىء غده

ما ارتد طرف امرىء بلذته ... الا وشىء يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك أمس انطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه امس فاخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال

كفى حزنا بدفنك ثم أنى ... نفضت تراب قبرك عن يديا

وكانت فى حياتك لى عظات ... وانت اليوم اوعظ منك حيا

وقال بعض الحكماء لوكان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

احسن الله بنا ان الخطايا لاتفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذا جميعه ماخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ماتدافنتم . وكتب رجل الى ابى العتاهية رحمه الله

يااباا اسحق انى واثق منك بودك
فاعنى بأبى انت على عيبى برشدك

(فاجابه بقوله)

اطع الله بجهدك راغبا اودون جهدك
اعط مولاك الذى تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سره بنوه ساءته نفسه فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

ابن ذى الابن كلمازادمنه مشرع زاد فى فناء أبيه
مابقاء الاب الملح عليه بدبيب البلى شباب بنيه

وفى معناه ما حكى عن زر بن حبيش انه قال وقد حضرته الوفاة وقد كان قد عاش مائة وعشرين سنة

اذا الرجال ولدت اولادها وارتعشت من كبر اجسادها
وجعلت اسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

(وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعرى بعد الباب ما الدار

(فاجابه بقوله)

الدار جنة عدن ان عملت بما يرضى الاله وان فرطت فالنار
هما محلان ماللناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

## باب أدب الدنيا

اعلم ان الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان

من لطيف ما دبر و بديع ما قدر أن خلقهم محتاجين و فطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق ويعلمنا بغناه انه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة فى جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الى الشىء افتقار اليه والمفتقر الى الشىء عاجز عنه وقال بعض الحكماء المتقدمين استغناؤك عن الشىء خير من استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى وبغى القدرة لان الطغيان مركوز فى طبعه اذا استغنى والبغى مستول عليه اذا قدر وقد انبأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ثم ليكون اقوى الامور شاهدا على نقصه واوضحها دليلا على عجزه وانشدنى بعض اهل الادب لابن الرومى رحمه الله

| | |
|---|---|
| اعيرتنى بالنقص والنقص شامل | ومن ذا الذى يعطى الكمال فيكمل |
| واشهد انى ناقص غير اننى | اذا قيس بى قوم كثير تقللوا |
| تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا | ففى ايما هذين انت مفضل |
| ولو منح الله الكمال ابن آدم | لخلده والله ما شاء يفعل * |

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته أسبابا ولدفع عجزه حيلا دله عليها بالعقل وأرشده اليها بالفطنة. قال الله تعالى والذى قدر فهدى. قال مجاهد قدر أحوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر. وقال ابن مسعود فى قوله تعالى وهديناه النجدين يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على سباب ما تدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدر كيلا يعتمدوا فى الارزاق على عقولهم والعجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة يظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سبيلا

لضلاله كما قال الشاعر

سبحان من أنزل الايام منزلها ... وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه ... وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الالباب حائرة ... وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها من هو مغيب حكمة استاثر الله بها . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى جعل اسباب حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لا غنى له عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس فى هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال أهل التأويل فاذا فرغت من أمور الدنيا فانصب فى عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى أخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها . وحكى مقاتل ان ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يارب حتى متى اتردد فى طلب الدنيا فقيل له امسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا وقال سفيان الثورى رحمة الله عليه مكتوب فى التوراة اذا كان فى البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك . وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة فى الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها . وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق

لاتتبع الدنيا وأيامها ذماوان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخرة

فاذا قدلزم بما بيناه النظر فى امور الدنيا فواجب سبر احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفى عن أهلها شبه الحيرة وتنجلى لهم اسباب الخيرة فيقصدوا الامور من أبوابها ويعتمدوا اصلاح قواعدها واسبابها واعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين اولهما ماينتظم به أمور جملتها. والثانى مايصلح به حال كل واحد من اهلها فهما شيئان لاصلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لانه منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرا لان الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه أخص وحاله امس فصار نظره الى مايخصه مصروفا وفكره على مايمسه موقوفا. واعلم ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى حينئذ جميعهم لم يجد احدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ماوصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا واما اذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم قال الحسن مختلفين فى الرزق فهذا غنى وهذا فقير ولذلك خلقهم يعنى للاختلاف بالغنى والفقر. وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق غير ان الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها ميسورا لانها اذا امنحت هنئت واودعت واذا استردت رفقت وأبقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا امنحت كدت وأتعبت واذا استردت استأصلت واجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر اهلها لقلة أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك فى مشاهد الحال تجربة

وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلاشيء انفع من صلاحها كما لاشيء أضرمن فسادها لان ماتقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلاشيء احق به نفعا كما ان مابه تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلاشيء اجدر به ضررا. وأنشدت لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم قد الحذاء على مثاله
ورجال دهرك مثل ده رك في تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزما ن جرى الفساد على رجاله

واذقد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم نتلوه بوصف مايصلح به حال الانسان فيها

اعلم ان مابه تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستة اشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دار وأمل فسيح (فاما القاعدة الاولى) وهي الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن ارادتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه الامور لايوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء وانما اختلف العلماء رضي الله عنهم في العقل والشرع هل جاء مجيئا واحدا أم سبق العقل ثم تعقبه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق احدهما صاحبه. وقالت طائفة اخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لانه بكمال العقل يستدل على صحة الشرع. وقد قال الله تعالى أيحسب الانسان ان يترك سدى وذلك لايوجد منه الا عند كمال عقله فثبت ان الدين من اقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعاقل ان يكون به متمسكا وعليه محافظا. وقال بعض الحكماء الادب أدبان ادب شريعة وأدب سياسة فادب الشريعة ماأدى الفرض وأدب السياسة ماعمر الارض وكلاهما

يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره. وقال سعيد بن حميد

ماصحة أبدا بنافعة حتى يصح الدين والخلق

(وأما القاعدة الثانية) فهى سلطان قاهر تتألف برهبته الاهواء المختلفه وتجتمع نهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدى المتغالبة وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية لان فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه مالا ينفكون عنه الا بمانع قوى ورادع ملى. وقد افصح المتنبى بذلك حيث يقول

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذاعفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد اربعة أشياء اما عقل زاجر أو دين حاجز أو سلطان رادع او عجز صاد فاذا تاملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بداعى الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان السلطان ظل الله فى الارض ياوى اليه كل مظلوم وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان لله حراسا فى السماء وحراسا فى الارض فحراسه فى السماء الملائكة وحراسه فى الارض الذين يقبضون ارزاقهم ويذبون عن الناس وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الامام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفى بعض الشر خيار وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما يصلح الله به أكثر فان عدل فله الاجر وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر. وقال أبو هريرة رضى الله عنه سبت العجم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى * وقال بعض البلغاء السلطان فى نفسه امام متبوع وفى سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد فى حكم وان عدل لم يجسر أحد على ظلم وقال بعض الادباء ان أقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالاجر والثواب أمره ونهيه فى وجوه المصالح فهذه آثار

السلطان فی أحوال الدنیا ومایننتظم به امورها ثم لما فی السلطان من حراسة الدین والذب عنه ودفع الاهواء منه وحراسة التبدیل فیه وزجر من شذ عنه بارتداد او بغی فیه بعناد اوسعی فیه بفساد وهذه امور ان لم تنحسم عن الدین بسلطان قوی ورعایة وافیة اسرع فیه تبدیل ذوی الاهواء وتحریف ذوی الآراء فلیس دین زال سلطانه الابدلت احکامه وطمست اعلامه وکان لکل زعیم فیه بدعة ولکل عصر فی وهیه أثر کما ان السلطان ان لم یکن علی دین تجتمع به القلوب حتی یری اهله الطاعة فیه فرضا والتناصر علیه حتما لم یکن للسلطان لبث ولا لایامه صفو وکان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذین الوجهین وجب اقامة امام یکون سلطان الوقت وزعیم الامة لیکون الدین محروسا بسلطانه والسلطان جاریا علی سنن الدین واحکامه وقد قال عبدالله بن المعتز

الملك بالدین یبقی والدین بالملك یقوی

واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل اوبالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لانه معلوم من حال العقلاء علی اختلافهم الفزع الی زعیم مندوب للنظر فی مصالحهم وذهب آخرون الی وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القیام بامور شرعیة کاقامة الحدود واستیفاء الحقوق وقد کان یجوز الاستغناء عنها بان لا یرد التعبد بها فبان یجوز الاستغناء عما لا یراد الا لها اولی وعلی هذا اختلفوا فی وجوب بعثة الانبیاء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الانبیاء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة الانبیاء لانه لما کان المقصود ببعثتهم تعریف المصالح الشرعیة وکان یجوز من المکلفین ان لا تکون هذه الامور مصلحة لهم لم یجب بعثة الانبیاء الیهم فاما اقامة امامین او ثلاثة فی عصر واحد وبلد واحد فلا یجوز اجماعا فاما فی بلدان شتی وامصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الی جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا کان اثنان فی بلدین او ناحیتین کان کل واحد منهما اقوم بما فی یدیه واضبط لما یلیه ولانه لما جاز بعثة نبیین فی عصر واحد ولم یؤد ذلك الی ابطال النبوة کانت الامة اولی ولا یؤدی ذلك الی ابطال الامامة وذهب الجمهور الی ان اقامة امامین فی عصر واحد لا یجوز شرعا لما روی عن النبی صلی الله علیه وسلم انه قال اذا بویع امیران فولوا احدهما وروی فاقتلوا الاخیر منهما. وروی عن النبی صلی الله علیه وسلم انه قال اذا

وليتم ابا بكر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل ضعيفا فى بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل قويا فى بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فبين بظاهر هذا الكلام ان اقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ولنبه عليه والذى يلزم سلطان الامة من امورها سبعة اشياء احدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له والثانى حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو فى الدين او باغى نفس أو مال. والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف فى أخذها واعطائها. والخامس معاناة المظالم والاحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة فى فصلها. والسادس اقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها. والسابع اختيار خلفائه فى الامور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من أفضى اليه سلطان الامة ماذكرناه من هذه الاشياء السبعة كان مؤديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لاظهارها ويتوقعون الدوائر لاعلانها. وقد قال الله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا وفى قوله تعالى عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم تاويلان. احدهما ان العذاب الذى هو من فوقهم امراء السوء والذى من تحت ارجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما. والثانى ان العذاب الذى هو من فوقهم الرجم والذى من تحت ارجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفى قوله تعالى او يلبسكم شيعا تاويلان. احدهما انه الاهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما. والثانى انه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن أمير على عشيرة الا وهو يجىء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذى يطلقه او يوبقه. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا

خيراحبهم واحبوه واذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ان الله تعالى اذا أحب عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم ان مالك عند الله مثل مالله عندك فكان هذا موضحا المعنى ماذكرنا وأصل هذا ان خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه وطاعته فى خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفائه اوصيك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه انى أخاف الله فيما تقلدت فقال له لست أخاف عليك ان تخاف الله وانما أخاف عليك أن لا تخاف الله وهذا واضح لان الخائف من الله تعالى مامون الحيف كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال لابى مريم السلولى وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب والله انى لا احبك حتى تحب الارض الدم قال افيمنعنى ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما ياسى على الحب النساء وروى عبد الرحمن بن محمد قال أصدق طلحة بن عبيد الله ام كلثوم بنت أبى بكر مائة ألف درهم وهو أول من أصدق هذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ماهذا قالوا اصداق ام كلثوم ابنة أبى بكر فقال أدخلوه بيت المال فاخبر بذلك طلحة وقيل له كلمه فى ذلك فقال ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده لكلامى وان كان لا يرى فيه حقا ليردنه قال فلما اصبح عمر أمر بالمال فدفع الى أم كلثوم . وحكى ان الرشيد حبس ابا العتاهية فكتب على حائط الحبس

اما والله ان الظلم لؤم * ومازال المسيء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم فى المعاد اذا التقينا * غدا عند المليك من الظلوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعا أبا العتاهية فاستحله ووهب له ألف دينار وأطلقه ( وأما القاعدة الثالثة ) فهى عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الاموال ويكثر معه النسل و يامن به السلطان فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا عدلت فامنت فنمت وليس شئ اسرع

فى خراب الارض ولا افسد لضمائر الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضا وخشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه. وحكى أن الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم أيما أفضل العدل أم الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل اغنى عن الشجاعة وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه فى ميزانه ولا تعارضه فى سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع فاذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التى لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب أن يبدأ بعدل الانسان فى نفسه ثم بعدله فى غيره فاما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الامرين من تجاوز أو تقصير فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ومن جار عليها فهو على غيره اجور وقد قال بعض الحكماء من توانى فى نفسه ضاع . وأما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة أقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان فى رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق فى السيرة فان اتباع الميسور أدوم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصرة وهذه أمور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتدبيره أظهر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه . وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم وقال بعض الادباء ليس للجائر جار ولا تعمر له دار وقال بعض البلغاء

أقرب الاشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم وقال أردشير بن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وعوتب انوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم والقسم الثانى عدل الانسان مع فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة أشياء باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة أجمع للشمل وبذل النصرة ادفع للوهن وصدق الولاء انفى لسوء الظن وهذه امور ان لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من كان يتقيه كما قال البحترى

متى احوجت ذا كرم تخطى اليك ببعض اخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل وقال ابرويس اطع من فوقك يطعك من دونك • وقال بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم والبغى مجلبة النقم وقال بعض الحكماء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتادية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعة ولزوم الشريعة • والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه ويكون بثلاثة اشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة آلف ومجانبة الادلال اعطف وكف الاذى انصف وهذه امور ان لم تخلص فى الاكفاء أسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وافسدوا وقد روى عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انبئكم بشرار الناس قالوا بلى يارسول الله قال من نزل (١) وحده ومنع رفده وجلد عبده ثم قال افلا انبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يارسول الله قال من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ثم قال الا انبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يارسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه وروى ان عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فقال يا بنى اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم يابنى اسرائيل الامور ثلاثة امر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وامر اختلفتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لاداب العدل

(١) قوله من نزل المشهور فى الحديث من أكل ولعل هذه رواية اخرى كتبه مصححه

فی الاحوال کلها وقال بعض الحکماء کل عقل لا یداری به الکل فلیس بعقل تام
وقال بعض الشعراء

مادمت حیا فدار الناس کلهم    فانما انت فی دار المداراة
من یدری داری ومن لم یدر سوف یری    عما قلیل ندیما للندامات

وقد یتعلق بهذه الطبقات امور خاصة یکون عدلهم فیها بالتوسط فی حالتی التقصیر والسرف لان العدل ماخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل وقد قالت الحکماء الفضائل هیئات متوسطة بین حالتین ناقصتین وافعال الخیر تتوسط بین رزیلتین (فالحکمة) واسطة بین الشر والجهالة (والشجاعة) واسطة بین التقحم والجبن (والعفة) واسطة بین الشره وضعف الشهوة (والسکینة) واسطة بین السخط وضعف الغضب (والغیرة) واسطة بین الحسد وسوء العادة (والظرف) واسطة بین الخلاعة والفدامة (والتواضع) واسطة بین الکبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بین التبذیر والتقتیر (والحلم) واسطة بین افراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بین الخلابة وحسن الخلق (والحیاء) واسطة بین القحة والحصر (والوقار) واسطة بین الهزء والسخافة واذا کان ماخرج عن الاعتدال الی مالیس باعتدال خروجا عن العدل الی مالیس بعدل کان ماخرج عن الاولی الی مالیس باولی خروجا عن العدل الی مالیس بعدل وقد قال بعض البلغاء السلطان السوء یخیف البریٔ ویصطنع الدنیء والبلد السوء یجمع السفل ویورث العلل والولد السوء یشین السلف ویهدم الشرف والجار السوء یفشی السر ویهتك الستر فجعل هذه الاشیاء بخروجها عن الاولی الی مالیس باولی خروجا عن العدل الی مالیس بعدل ولست تجد فسادا الا وسبب نتیجته الخروج فیه عن حال العدل الی مالیس بعدل ومن حالتی الزیادة والنقصان فاذن لا شیٔ انفع من العدل کما انه لا شیء أضر مما لیس بعدل

(وأما القاعدة الرابعة) فهی امن عام تطمئن الیه النفوس وتتیسر فیه الهمم ویسکن فیه البریء ویأنس به الضعیف فلیس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنینة وقد قال بعض الحکماء الامن اهنأ عیش والعدل اقوی جیش لان الخوف یقبض الناس عن مصالحهم ویحجزهم عن تصرفهم ویکفهم عن اسباب المواد التی بها قوام اودهم

وانتظام جملتهم ولئن كان الامن من نتائج العدل والجور من نتائج ماليس بعدل فقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة يكون باسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ماسبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن فى انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ماعم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه ان يستوعب جميع الاحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز ان يتصف حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشيء مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن ان لاخوف له الا اياه فيغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمريض الذى هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ماصرف عنه اعظم مما ابتلى به

على انها تعفو الكلوم وانما　　يوكل بالادنى وان جل مايمضى

﴿ وحكى ﴾ ان رجلا قال واعرابى حاضر ما اشد وجع الضرس فقال الاعرابى كل داء اشد داء كذلك من عمه الامن كمن استولت عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك ابو تمام الطائى فقال

والحادثات وان اصابك بؤسها　　فهو الذى انباك كيف نعيمك

فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وامنه وما انصرف عنه مما هو اشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا. حكى ان يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه أى شيء كان خبرك بعدى قال لاتسال عما فعله بى اخوتى سلنى عما صنعه بى ربى وقال الشاعر

لاتنس فى الصحة ايام السقم　　فان عقبى تارك الحزم ندم

( وأما القاعدة الخامسة ) فهى خصب دار تتسع النفوس به فى الاحوال ويشترك

فيه ذو الاكثار والاقلال فيقل فى الناس الحسد وينتفى عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس فى التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من أقوى الدواعى لصلاح الدنيا وانتظام احوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى ابى موسى الاشعرى لاتستقضين الا ذا حسب أو مال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب فى مال غيره وقال بعض السلف انى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى وشر الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر وقال بعض الشعراء

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى يكون اقلال البخيل واعطاؤه واكثار الجواد وسخاؤه كما قال دعبل

لئن كنت لاتولى ندى دون امرة فلست بمول نائلا آخر الدهر

وأى اناء لم يفض عند ملئه وأى بخيل لم ينل ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من اسباب الفساد ماضادها وكما ان صلاح الخصب عام فكذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح ان وجد عم به الفساد ان فقط فأحرى ان يكون من قواعد الصلاح ودواعى الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب فى المكاسب وخصب فى المواد فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن بها واما خصب المواد فقد يتفرع عن أسباب إلهية وهو من نتائج العدل المقترن بها

(وأما القاعدة السادسة) فهى أمل فسيح يبعث على اقتناء مايقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ماليس يؤمل فى دركه بحياة أربابه ولولا ان الثانى يرتفق بما أنشأه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر الى انشاء مايحتاجون اليه من منازل السكنى واراضى الحرث وفى ذلك من الاعواز وتعذر الامكان مالاخفاء به فلذلك ماأرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثانى ماأبقاه الاول من عمارتها ويرم الثالث ماأحدثه الثانى من شعثها لتكون أحوالها على الاعصار ملتئمة وامورها على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال ماتجاوز الواحد حاجة يومه ولاتعدى

ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد باسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمى بها نبت ولا يمكن فيها لبث وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الامل رحمة من الله لأمتى ولولاه ماغرس غارس شجرا ولا أرضعت أم ولدا وقال الشاعر

وللنفوس وان كانت على وجل  من المنيــة آمال تقويها
فالصبر يبسطها والدهر يقبضها  والنفس تنشرها والموت يطويها

وأما حال الامل فى أمر الآخرة فهو من أقوى الاسباب فى الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد افصح لبيد بن ربيعة مع اعرابيته بما تبين به حال الامل فى الآمرين فقال

واكذب النفس اذا حــدثتها  ان صدق النفس يزرى بالامل
غـــير ان لا تكذبنها فى التقى  واخزها بالــبر لله الاجــل

وفرق ما بين الآمال والامانى ان الآمال ماتقيدت باســباب والامانى ماتجردت عنها فهذه القواعــد الست التى تصلح بها احوال الدنيا وتنتظم أمور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد ان يكون أمر الدنيا تاما كاملا وان يكون صلاحها عاما شاملا لأنها موضوعة على التغير والفناء منشاة على التصرم والانقضاء وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال. فاذن تستوى لانها مقلوبة وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام ان خطوبها  اذا سر منها جانب ساء جانب
وما أعرف الايام الاذميمة  ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

﴿ فصل ﴾ وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء وهى قواعد امره ونظام حاله وهى نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم أوده بها

( فاما القاعدة الاولى ) التى هى نفس مطيعة فلأنها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بان لا يملك غيرها احرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى وقال بعض الحكماء لا ينبغى للعاقل ان يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه وقد قال الشاعر

أتطمع ان يطيعك قلب سعدى  وتزعم ان قلبك قد عصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين أحدهما نصح والثانى انقياد فاما النصح فهو ان ينظر الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغى غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعى الهوى ولذلك قيل من تفكر أبصر فاما الانقياد فهو ان تسرع الى الرشد اذا امرها وتنتهى عن الغى اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما وللنفس آداب هى تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد افردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا فى هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب.

(وأما القاعدة الثانية) التى هى الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مالوفا تخطفته ايدى حاسديه وتحكمت فيه اهواء اعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فاذا كان آلفا مالوفا انتصر بالالفة على أعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفو الزمان غرة وسلمه خطرا. وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن آلف مالوف ولا خير فيمن لا يالف ولا يؤلف وخير الناس انفعهم للناس. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبله جميعا ولا تتفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة والعرب تقول من قل ذل وقال قيس بن عاصم

ان القداح اذا اجتمعن فرامها  بالكسر ذو حنق وبطش ايد

عزت فلم تكسر وان هى بددت  فالوهن والتكسير للمتبدد

واذا كانت الالفة بما اثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر اسبابها واسباب الالفة خمسة وهى الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فاما الدين وهو الاول من أسباب الالفة فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل

ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه فروى سفيان عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتقاطعوا ولاتدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لايحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث. هذا وان كان اجتماعهم فى الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر ترات الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشد تقاطعا وتعاديا واكثر اختلافا وتماديا حتى ان بنى الاب الواحد كانوا يتفرقون احزابا فتثور بينهم بالتحزب والافتراق احقاد الاعداء واحن البعداء وكانت الانصار أشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين اكثر من غيرهم الى أن اسلموا فذهبت احنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين اعوانا متناصرين قال الله تعالى واذكروا اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا يعنى أعداء فى الجاهلية فالف بين قلوبكم بالاسلام. وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا يعنى حبا وعلى حسب التالف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف اهله فان الانسان قد يقطع فى الدين من كان به بارا وعليه مشفقا هذا ابو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية فى الفضل والاثر المشهور فى الاسلام قتل أباه يوم بدر واتى برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على ضلاله وانهمك فى طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من ابر الابناء تغليبا للدين على النسب واطاعة الله تعالى على طاعة الاب وفيه انزل الله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل مايحدث بين المختلفين فى الاديان وعلة ذلك ان الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان اقوى اسباب الالفة كان الاختلاف فيه من اقوى اسباب الفرقة واذا تكافا أهل الاديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين اعلى يدا واكثر عددا كانت العداوة بينهم اقوى والاحن فيهم أعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء واما النسب وهو الثانى من اسباب

الالفة فلأن تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت بالفة الانساب تناصرها على القوى الايد وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط وقد اعذر نبى الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليهم لو أن لى بكم قوة أو آوى والى ركن شديد يعنى عشيرة مانعة وروى ابو سلمة عن ابى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان ياوى الى ركن شديد يعنى الله عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث الله تعالى من نبى بعده الا فى ثروة من قومه. وقال وهب لقد ردت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد وروى عن رسول الله عليه السلام انه كان لا يترك المرء مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون اليها. قال الرياشى المفرج الذى لا ينتمى الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه عليه السلام على الالفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم واذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذن قد لزم أن نصف حال الانساب وما يعرض لها من الاسباب فجملة الانساب انها تنقسم ثلاثة أقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة فاما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة احوالهم بخلقين أحدهما لازم بالطبع والثانى حادث باكتساب فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شىء ثمرة وثمرة القلب الولد وروى عنه أنه قال الولد مبخلة مجهلة مجبنة محزنة فاخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التى لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما وقيل ليحيى بن زكرياء عليهما السلام ما بالك تكره الولد فقال مالى وللولد ان عاش كدنى وان مات هدنى وقيل

لعيسى بن مريم عليهما السلام الا تتزوج فقال انما يحب التكاثر فى دار البقاء واما ما كان حادثا بالاكتساب فهى المحبة التى تنمى مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد أنوط يعنى ان حبه ملصق بنياط القلب . فان انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه فقد قال محمد بن على رضى الله عنه ان الله تعالى رضى الآباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الابناء للآباء فاوصاهم بهم وان شر الابناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاه البر الى الافراط والامهات اكثر اشفاقا وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين من التربية فانهن أرق قلوبا والين نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن اوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن وان كان الله تعالى قد اشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد روى ان رجلا أتى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان لى اما انا مطيتها اقعدها على ظهرى ولا اصرف عنها وجهى وارد اليها كسبى فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وانت تخدمها وتحب موتها . وقال الحسن البصرى حق الوالد اعظم وبر الوالدة الزم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أنها كم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات وروى خالد بن معدان عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب

وأما المولودون فهم الاولاد واولاد الاولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم والآخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة للآباء من تهضم اوخمول والانفة فى الابناء فى مقابلة الاشفاق فى الآباء وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى فى شعره فقال

فاصبحت يلقانى الزمان لاجله　　باعظام مولود واشفاق والد

واما المنتقل فهو الادلال وهو اول حال الولد والادلال فى الابناء فى مقابلة المحبة فى الآباء لان المحبة بالآباء اخص والادلال بالابناء امس وقد روى عن عمر رضى الله

عنه انه قال قلت يارسول الله مابال الناس رق على اولادنا ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم
يلدونا ثم الادلال فى الابناء قد ينتقل مع الكبر الى احد امرين اما الى البر والاعظام
واما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا او كان الاب برا اعطوفا صار الادلال
برا واعظاما وقد روى الزهرى عن عامر بن شراحيل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال
لجرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد ان يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند
النصب والسغب فان المكافىء ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها
وان كان الولد غاويا او كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا ولذلك قال النبى صلى
الله عليه وسلم رحم الله امرأ اعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه
بمولود فقال ريحانة اشمها ثم هو عن قريب ولد بار أو عدو ضار وقد قيل فى منثور الحكم
العقوق ثكل من لم يثكل . وقال بعض الحكماء ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعاً
ووزيرك سبعاً ثم هو صديق أو عدو

وأما المناسبون فهم من عدا الاباء والابناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم والذى
يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى أدنى رتبة الانفة لان الانفة تمنع من التهضم
والخمول معاً والحمية تمنع من التهضم وليس لها فى كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن
بها ما يبعث على الانفة وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والاجانب وهى
معرضة لحسد الادانى والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست
بالتواصل والتلاطف تاكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك
أوكد أسباب الالفة وقد قيل لبعض قريش ايما أحب اليك أخوك أو صديقك قال أخى
اذا كان صديقا . وقال مسلمة بن عبد الملك العيش فى ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم
وموافقة الاهل : وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته
وان أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتماداً على حمية القرابة غلب عليها
مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا وقال الكندى
فى بعض رسائله الاب رب والولد كد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب
عقارب وقال عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمى وهم ياكلونه وماداهيات المرء الا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الارحام وأثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هى الرحم التى أمر الله بوصلها ويخشون ربهم فى قطعها ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها وروى عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل انا الرحمن وهى الرحم اشتققت اسمها من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة فى الاهل منسأة فى الاجل . وقال بعض الحكماء بلوا ارحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق وقال بعض البلغاء صلوا أرحامكم فانها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهضم عليها فروعكم : وقال بعض الادباء من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم يذب عنك وقال بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره اعانه الله وأجاره . وقال محمد بن عبد الله الازدى

وحسبك من ذل وسوء صنيعة ... مناواة ذى القربى وان قيل قاطع
ولكن أواسيه وانسى ذنوبه ... لترجعه يوما الى الرواجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل ... وعبد لارحام القرابة قاطع

﴿ وأما المصاهرة ﴾ وهى الثالث من أسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة وايثار فاجتمع فيها أسباب الالفة ومواد المظاهرة قال الله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعنى بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الالفة وفيها تاويل آخر قاله الحسن البصرى رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد . وقال تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة . اختلف المفسرون فى الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم اختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما هم ولد الرجل وولد ولده وروى عنه أنهم بنوا امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم فى الخدمة وسرعتهم فى العمل ومنه قولهم فى القنوت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا

ويصير العدو مواليا وقد يصير للصهر بين الاثنين الفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين . حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال كان أبغض خلق الله عز وجل الى آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الى وفيها يقول

أحب بنى العوام طرا لاجلها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

فان تسلمى نسلم وان تتنصرى يخط رجال بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغى لعقدها أحد خمسة أوجه وهى المال والجمال والدين والالفة والتعفف وقد روى سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تنكح المرأة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان أقوى الدواعى اليه فالمال اذن هو المنكوح فان اقترن بذلك أحد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز ان يلبث العقد وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره من الاسباب وعرى عما سواه من المواد فاخلق بالعقد أن ينحل وبالالفة أن تزول لاسيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد ينقضى سبب الالفة به فقد قيل من ودك لشئ تولى مع انقضائه وان أعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودك طمعا فيك ابغضك اذا آيس منك . وقال عبد الحميد من عظمك لاكثارك استقلك عند اقلالك فان كان العقد رغبة فى الجمال فذلك أدوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل حسن الصورة أول السعادة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أعظم النساء بركة أحسنهن وجهاً وأقلهن مهراً فان سلمت الحال من الادلال المفضى الى الملل استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع اما لا يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة وقد حكى أن رجلا شاور حكيما فى التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى

أفيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الاول

ولن تصادف مرعى ممرعا ابدا ‏ ‏ ‏ الاوجدت به آثار منتجع

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة وقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال ياصيادا احذر أن تصاد وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة تقول هذا البيت

ان النساء رياحين خلقن لكم ‏ ‏ ‏ وكلكم يشتهى شم الرياحين

فقال رضى الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا ‏ ‏ ‏ نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة فى الدين فهو أوثق العقود حالا وأدومها ألفة وأمدها بدأ وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت له حاله وأمن ذلله ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فاظفر (١) بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان أحدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثانى أنها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما أشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة فى الالفة فهذا يكون على أحد وجهين اما أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين واما أن يقصد به تالف أعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان فى الاماثل وأهل المنازل وداعى الوجه الاول هو الرغبة وداعى الوجه الثانى هو الرهبة وهما سببان فى غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا أن ينضم اليها أحد الاسباب الباعثة عليها او المقربة لها وان كان العقد رغبة فى التعفف فهو الوجه الحقيقى المبتغى بعقد النكاح وماسوى ذلك فاسباب معلقة عليه ومضافة اليه وروى أنه لما نزل قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها قال النبى صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمه فى التراب وخلقت المرأة من

---

(١) الذى تقدم فعليك بذات الخ وكلاهما مروى اه

الرجل فهمها فى الرجل . وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له ياعكاف ألك زوجة قال لا قال فأنت اذن من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على التعفف عن الفساد وباعثا على التكاثر بالاولاد . ولهذا المعنى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم اذا أفضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعنى فى طلب الولد فلزم حينئذ فى عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهى نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه فاما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط أحدها الدين المفضى الى الستر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف قال أبو هريرة رضى الله عنه لايفرك (١) مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها خلقا وخطب رجل من عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال لا أرضاها لك قال ولم وفى دارك نشات قال انها تتشرف قال لا أبالى فقال الآن أرضاك لها وفى معنى هذا قول بعض العلماء من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير والشرط الثانى العقل الباعث على حسن التقدير والآمر بصواب التدبير فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل حيث كان ألوف ومألوف وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع . والشرط الثالث الاكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا فى الاكفاء وروى ان أكثم بن صيفى قال لولده يابنى لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف وقال أبو الاسود الدؤلى لبنيه قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل ان تولدوا قالوا وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها وأنشد الرياشى

---

(١) بالفاء والراء والكاف أى لا يبغض كما فى النهاية وغيرها ووقع فى النسخ المطبوعة قبل هذا لا يعذل وهو خطأ اهـ مصححه

فاول احسانى اليكم تخيرى　　لماجدة الاعراق بادعفافها

وقد تنضم الى هذه الشروط من صفات الذات وأحوال النفس مايلزم التحرز منه لبعد الخير عنه وقلة الرشد فيه فان كوامن الاخلاق بادية فى الصور والاشكال كالذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد بن حارثة اتزوجت يازيد قال لا قال تزوج تتعفف مع عفتك ولا تتزوج من النساء خمسا قال وماهن يارسول الله قال لا تتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هبذرة ولا لفوتا فقال يارسول الله انى لا أعرف مما قلت شيأ قال أما الشهبرة فالزرقاء البذية وأما اللهبرة فالطويلة المهزولة وأما النهبرة فالعجوزة المدبرة وأما الهبذرة فالقصيرة الدميمة وأما اللفوت فذات الولد من غيرك * وقال شيخ من بنى سليم لابنه يابنى اياك والرقوب الغضوب القطوب الرقوب التى تراقبه أن يموت فتأخذ ماله . وأوصى بعض الاعراب ابنه فى التزوج فقال اياك والحنانة والمنانة والانانة فالحنانة التى تحن لزوج كان لها والمنانة التى تمن على زوجها بمالها والانانة التى تئن كسلا وتمارضا * وقال أوفى بن دلهم النساء أربع فمنهن معمع لها شيئها أجمع ومنهن ممنع تضر ولا تنفع ومنهن مصدع تفرق ولا تجمع ومنهن غيث وقع ببلد فامرع وقال الشاعر

أرى صاحب النسوان يحسب أنها　　سواء وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات يفى ظلالها　　ومنهن نيران لهن وقود

وأنشد أبو العيناء عن أبى زيد

ان النساء كاشجار نبتن معا　　منهن مر وبعض المر ماكول
ان النساء ولو صورن من ذهب　　فيهن من هفوات الجهل تخييل
ان النساء متى ينهين عن خلق　　فانه واجب لابد مفعول
وماوعدنك من شر وفين به　　وما وعدنك من خير فممطول

فاما النوع الآخر فانه لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال وينتقل بتنقل الانسان والازمان فانه لا يستغنى به عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون أدوم لحال الالفة وأمد لاسباب الوصلة فان الرأى المعلول لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يدوم على دخله فلابد أن ينتقل الى احدى حالتين اما الى الزيادة والكمال

اوماالى النقصان والزوال * حكى أن رجلا قال لعلى كرم الله وجهه انى أحبك وأحب معاوية فقال رضى الله عنه أما الآن فانت أعور فاماان تبرأ واماأن تعمى فاذا كان كذلك فلابدمن كشف السبب الباعث على هذا النوع فانه لايخلوامن ثلاثة أحوال (احدها) أن يكون لطلب الولد والاحمد فيه التماس الحداثة والبكارة لانها اخص بالولادة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالابكار فانهن اعذب افواها وانتق ارحاما وارضى باليسير ومعنى قوله انتق ارحاما اى أكثر أولادا وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالابكار فانهن أكثر حبا وأقل خنا وهذه الحال هى اولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضع لها والشرع وارد بها وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سوداء ولود خير من حسناء عاقر والعرب تقول فى امثالها من لايلد لاولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الاجانب ويرون ان ذلك انجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون نكاح الاهل والاقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اغتربوا لاتضووا وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال يابنى السائب قد ضويتم فانكحوا فى الغرائب وقال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة ... مخافة ان يضوى على سليلى

وكانت حكماء المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كان سن امه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرى لاينجب وان انجب النساء الفروك لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها فى الرجال وقالوا ان الرجل اذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم اذكرت أنجبت (والحالة الثانية) ان يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس بالزم حالتى الزوجات لانه قد يجوز أن يعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة ريحانة وليست بقهرمانة وليس فى هذا القصد تاثير فى دين ولاقدح فى مروءة والاحمد فى مثل هذا التماس ذوات الاسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن اقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به

الاستمتاع وهى أذم الاحوال الثلاث وأوهنها للمروءة لانه ينقاد فيه لاخلاقه البهيمية و يتابع شهوته الذميمة وقد قال الحارث بن النضر الازدى شر النكاح نكاح الغلمة الاأن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه فى ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد أجدر وبالثناء أحق ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر الى الاماء كان أكمل لمروءته وأبلغ فى صيانته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الامور وهى أخطر الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة فى الابتداء كراهية فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من أن يبتذلهن اللئام بهذه الحال وكان من تحوب من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن أحب اليه وآثر عنده ولما خطب الى عقيل بن علفة ابنته الجرباء قال

انى وان سيق الى المهر * الف وعبدان وذود عشر * أحب صهار الى القبر

وقال عبد الله بن طاهر

لكل أبى بنت يراعى شؤونها ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها وقبر يواريها وأفضلها القبر

﴿ فصل ﴾ وأما المواخاة بالمودة وهى الرابع من أسباب الالفة لانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا أعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه لتزيد الفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم باخوان الصدق فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقاء الاخوان جلاء الاحزان وقال خالد بن صفوان ان أعجز الناس من قصر فى طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن يا بنى الغريب من ليس له حبيب وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له أعوانا وقال بعض الادباء أفضل الذخائر اخ وفى

وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد وقال بعض الشعراء

همومُ رجالٍ في أمور كثيرة وهمّي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلاتدع فيه خللا الا ملاته وأنشد الرياشي قول بشار

قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة في الناس قد تكون على وجهين احدهما اخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهي أوكد حالا لانها تنعقد عن اسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تعقدها أسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو ألزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب نبتدئ بها ثم ننتقل في غاية أحواله المحدودة الى سبع مراتب ربما استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب قال الشاعر

ماهوى الا له سبب يبتدي منه وينشعب

فاول أسباب الاخاء التجانس في حال يجتمعان فيها و ياتلفان بها فان قوي التجانس قوي الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا مالم تحدث علة اخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف فثبت ان التجانس وان تنوع أصل الاخاء وقاعدة الائتلاف وقد روى يحيي بن سعيد عن عمر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهي بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة وقيل في منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق وقال بعض الحكماء بحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل ولبعضهم

فلا تحقتر نفسى وأنت خليلها فكل امرئ يصبو الى من يشا كل

﴿ وقال آخر ﴾

فقلت اخى قالوا أخ من قرابة فقلت لهم ان الشكول أقارب
نسيبى فى رأيى وعزمى وهمتى وان فرقتنا فى الاصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهى المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا أولا فان جناهم مر
كم من رياض لا أنيس بها تركت لان طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهى المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هى أدنى الكمال فى أحوال الاخاء وما قبلها أسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى العشق وسببه الطمع وقد قال المامون رحمه الله تعالى

أول العشق مزاح وولع ثم يزداد اذا زاد الطمع
كل من يهوى وان عالت به رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة محدودة لانها قد تؤدى الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى مخالطة الارواح وان تفارقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها وقد قال الكندى الصديق انسان هو أنت الا انه غيرك ومثل هذا القول المروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين اقطع طلحة بن عبيد الله ارضا وكتب له بها كتابا واشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى أبى بكر رضى الله عنه وقال والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر

فقال بل عمر لكنه افا واما المكتسبة بالقصد فلابد لها من داع يدعو اليها و باعث يبعث عليها و قد يكون الداعى اليها من وجهين رغبة و فاقة فاما الرغبة فهى ان يظر من الانسان فضائل تبعث على اخائه و يتوسم بجميل يدعو الى اصطفائه و هذه الحالة اقوى من التى بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها و انما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله و لا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه و المتكلف للشيء مناف له الا ان يدوم عليه مستحسناله فى العقل او متدينا به فى الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من كلام الحكماء ليس فى الطبع ان يكون ما ليس فى التطبع ثم نقول من المتعذر ان تكون اخلاق الفاضل كاملة بالطبع و انما الاغلب ان يكون بعض فضائله بالطبع و بعضها بالتطبع الجارى بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به فى العادة اغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذا خالف العادة و لذلك قيل العادة طبع ثان و قال ابن الرومى رحمه الله

واعلم بان الناس من طينة … يصدق فى الثلث لها الثالب
لولا علاج الناس اخلاقهم … اذن لفاح الحمأ اللازب

و اما الفاقة فهى ان يفتقر الانسان لوحشة انفراده و مهانة وحدته الى اصطفاء من يانس باخائه و يثق بنصرته و موالاته و قد قالت الحكماء من لم يرغب فى ثلاث بلى بست من لم يرغب فى الاخوان بلى بالعداوة و الخذلان و من لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد و الامتهان و من لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة و الخسران و لعمرى ان اخوان الصدق من انفس الذخائر و افضل العدد لانهم سهماء النفوس و اولياء النوائب و قد قالت الحكماء رب صديق اود من شقيق و قيل لمعاوية ايما احب اليك قال صديق يحببنى الى الناس و قال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد و البعيد بمودته قريب و قال الشاعر

لمودة ممن يحبك مخلصا … خير من الرحم القريب الكاشح

**وقال آخر**

يخونك ذو القربى مرارا و ربما … و فى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر احوالهم قبل اخائهم و كشف عن اخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدم من قول الحكماء اسبر تخبر و لا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة

ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصائد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجيتا المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولاجل ذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه وقال خالد بن صفوان انما نفقت عند اخوانى لانى لم استعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق وقال حماد

كم من أخ لك ليس تنكره     مادمت فى دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته     يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذوغير     دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من     يقلى المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة     فى العسر اما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه أفاعيل من صاحب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الصاحب مناسب وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ما من شىء أدل على شىء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب وقال بعض الحكماء أعرف أخاك باخيه قبلك وقال بعض الادباء يظن بالمرء ما يظن بقرينه وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه     فكل قرين بالمقارن يقتدى
اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم     ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء أهل السوء ويجانب أهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره ولهذا قيل التثبت والارتياء ومدا ومة الاختبار والابتلاء متعذر بل مفقود وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

ألم تر أن الماء يخبث طعمه     وان كان لون الماء أبيض صافيا

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال اما البيت فحسن واما الساكن فردىء فاخذ جحظة هذا المعنى فقال

رب ما أبين التباين فيه     منزل عامر وعقل خراب

وأنشدنى بعض أهل العلم

لا تـتركنن الى ذى منظر حسن　　فرب رائقة قـدساء مخبرها
ماكل اصفر دينار لصفرته　　صفر العقارب أرداها وانكرها

ثم قد تقدم من قول الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس أثمرت مودته ندما وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختبار أفضل من مواخاة على اغترار وقال بعض الادباء لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالعدو قبل القدرة وقال بعض الشعراء

لا تحمدن امرأحتى تجربه　　ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبله خطأ　　وذمك المرء بعد الحمد شر تكذيب

فاذا قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل اخائهم وخبرة اخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال المعتبرة اخائهم بعد المجانسة التى هى أصل الاتفاق أربع خصال

﴿ فالخصلة الاولى ﴾ عقل موفور يهدى الى مراشد الامور فان الحمق لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال البذاء لؤم وصحبة الاحمق شؤم وقال بعض الحكماء عداوة العاقل اقل ضررا من مودة الاحمق لان الاحمق ربما ضر وهو يقدر ان ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد فى مضرته فمضرته لها حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود اقل ضررا مما هو غير محدود وقال المنصور للمسيب بن زهير ما مادة العقل فقال مجالسة العقلاء وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذوى المحال وقال بعض الادباء من أشار عليك باصطناع جاهل او عاجز لم يخل ان يكون صديقا جاهلا اوعدوا عاقلا لانه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك وقال بعض الشعراء

اذا ما كنت متخذا خليلا　　فلا تثقن بكل اخى اخاء
فان خيرت بينهم فالصق　　باهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما　　تفاضلت الفضائل من كفاء

﴿ والخصلة الثانية ﴾ الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره وقال بعض الحكماء اصطف من الاخوان اذا الدين

والحسب والرأي والادب فانه ردءلك عند حاجتك ويدعند نائبتك وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

اخلاء الرخاء هم كثير ولكن فى البلاء هم قليل
فلايغررك خلة من تواخى فمالك عند نائبة خليل
وكل اخ يقول انا وفى ولكن ليس يفعل مايقول
سوى خل له حسب ودين فذاك لما يقول هو الفعول

﴿ وقال آخر ﴾

من لم تكن فى الله خلته فخليله منه على خطر

﴿ والخصلة الثالثة ﴾ ان يكون محمود الاخلاق مرضى الفعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب العداء وتفسد الاخلاق ولا خير فى مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فان المتبوع تابع لصاحبه وقال عبد الله بن المعتز اخوان الشر كشجر النارنج يحرق بعضه بعضا وقال بعض الحكماء مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذى من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه وقال بعض البلغاء صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار وقال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار وقال بعض الشعراء

مجالسة السفيه سفاه رأى ومن عقل مجالسة الحكيم
فانك والقرين معا سواء كما قد الاديم من الاديم

﴿ والخصلة الرابعة ﴾ ان يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة فى مواخاته فان ذلك أوكد لحال المؤاخاة وامد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال البحترى

وطلبت منك مودة لم اعطها ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة فلا خير فى ود يكون بشافع

واقسم ماترکی عتابك عن قلی　　ولـكن لعلمی انه غير نافع
وانی اذالم ألزم الصبر طائعا　　فلا بدمنه مكرهاغير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال فی انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب ان يكون الميل اليه والثقة به وبحسب مايری من غلبة احداها عليـه يجعل مستعملا فی الخلق الغالب عليه فان الاخوان علی طبقات مختلفة وانحاء متشعبة ولـكل واحد منهم حال يختص بها فی المشاركة وثلمة يسـدها فی الموازرة والمظافرة وليس تتفق أحوال جميعهم علی حـد واحد لان التباين فی الناس غالب، واختلافهم فی الشيم ظاهر وقال بعض الحكماء الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فاخذ هذا المعنی منصور بن اسمعيل فقال

بنو آدم كالنبت　　ونبت الارض الوان
فمنهم شجر الصند　　ل والكافور والبان
ومنهم شجر افضـــل　　مايحمـل قطران

ومن رام اخوانا تتفق احوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا المكان ربما وقع به خلل فی نظامه اذليس الواحد من الاخوان يمكن استعانة به فی كل حال ولا المجبولون علی الخلق الواحد يمكن ان يتصرفوا فی جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الائتلاف وقد قال بعض الحكماء ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا وقال المامون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنی عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه احيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه ابدا ولعمری ان الناس علی ماوصفهم ولكن ليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء المحذورين وانما يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا فی عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفی الاعداء عند المكاشفة والمجاهرة قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها وقد قيل فی منثور الحكم لا تغترر بمقاربة العدو فانه كالماء الذی ان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها وقال يزيد بن الحكم الثقفی

تـكاشرنی ضحكا كانك ناصح　　وعينك تبدی ان صدرك لی دوی

لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوى
فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران اللذان من كان منهم كالغذاء أو كالدواء لان الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وأفضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه أعم واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله اليه واستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت أسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه وقال الشاعر

ماأنت بالسبب الضعيف وانما نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس فى اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى ان الاستكثار منهم اولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحببا وتوددا وأكثر تعاونا وتفقدا وقيل لبعض الحكماء ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان وقيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى ان الاقلال منهم أولى لانه اخف أثقالا وكلفا وأقل تنازعا وخلفا وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار ولقد أحسن ابن الرومى فى هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرى فى النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدد وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خير من ألف

تكثر الاعداد

واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله و يطلب شكله وامثاله من ذوى العقل والفضل أقل من اضداده من ذوى الحمق والنقص لان الخيار فى كل جنس هو الاقل فلذلك قل وفور العقل والفضل وقد قال الله تعالى ( ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ) فقل بهذا التعليل اخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم وقد قال فى ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله    فاكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل أناس آلفون لشكلهم    فاكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لان كثير العقل لست بواجد    له فى الطريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش ان فقدته    وجدت له فى كل ناحية عدلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل فى عدد الاخوان أربعة أقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين فاما المعين والمستعين فهو معارض منصف يؤدى ما عليه ويستوفى ماله فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور فى معونته ومعذور فى استعانته فهذا أعدل الاخوان وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه التارك للاخوان متروك واذ كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان باللوم أجدر وقد قال الشاعر

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى    له أحد يزرى عليه و ينكر

غير ان فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبى

انا لفى زمن ترك القبيح به    من أكثر الناس احسان واجمال

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط

فيه الرهبة فلاخيره يرجى ولاشره يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله فى الاخاء حظ ولا فى الوداد نصيب وهو ممن جعله المامون من داء الاخوان لامن دوائهم ومن سمهم لامن غذائهم وقال بعض الحكماء شر مافى الكريم ان يمنعك خيره وخير مافى الائيم ان يكف عنك شره وقال ابن الرومى

عذرنا النخل فى ابداء شوك　　يرديه الانامل عن جناه

فما للعوسج الملعون ابدى　　لنا شوكا بلا ثمر فراه

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا فى نائبه ولا يقعد عن نهضة فى معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا وأكرمهم طبعا فينبغى لمن أوجده الزمان مثله (وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم) أن يثنى عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به أشد ضنا منه بنفائس أمواله واسنى ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان أعم نفعا فهو بالادخار أحق وقال الفرزدق

يمضى أخوك فلا تلقى له خلفا　　والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر

لكل شئ عدمته عوض　　وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغى ان يزهد فيه لخلق أو خلقين يكرههما منه اذا رضى سائر اخلاقه وحمد أكثر شيمه لان اليسير مغفور والكمال معوز وقد قال الكندى كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع مع أن نفس الانسان التى هى أخص النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لا تعطيه قيادها فى كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته فى كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك ان يكون لك من أخيك أكثره وقد قال ابو الدرداء رضى الله عنه معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك باخيك كله فاخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية

أأخى من لك بنى الد　　نيا بكل اخيك من لك

فاستبق بعضك لا يمـ　　ـلك كل من لم تعط كلك

وقال أبو تمام الطائى

ماغبن المغبون مثل عقله　　من لك يوما باخيك كله

وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف وقال بعض البلغاء لا يزهدنك فى رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله و بطنت عقله عيب خفى تحيط به كثرة فضائل أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر بنفسك بعد ان لا تراها بعين الرضا ولا تجرى فيها على حكم الهوى فان فى اعتبارك بها واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب وقد قال الشاعر

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها　　كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال النابغة الذبيانى

ولست بمستبق أخا لا تلمه　　على شعث أى الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختبار واختبار الخصال الاربع فيه لان ما أعوز فيه معفو عنه وهذا الا ينبغى أن توحشك فترة تجدها منه ولا ان تسىء الظن فى كبودة تكون منه مالم تتحقق تغيره وتتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها وقد قيل فى منثور الحكم لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له وقال جعفر بن محمد لابنه يا بنى من غضب من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوأ فاتخذه لنفسك خلا وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة اخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان وقد روى عن على رضى الله عنه فى قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضا بغير عتاب وقال ابن الرومى

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى　　يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الانصاف انك تبتغى الـ　　مهذب فى الدنيا ولست المهذبا

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الايام باق　　ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه　　على علاته دانى النزوع

معاذالله ان قلبى غضابا سوى دل المطاع على المطيع

وأنشدنى الازدى

لا يؤيسنك من صديق نبوة ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتأنه حتى تفيء به وطبعك أكرم

وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر واخاؤه غرر لانه لا يبقى على حالة ولا يخلو عن استحالة وقد قال ابن الرومى

اذا أنت عاتبت الملول فانما تخط على صحف من الماء احرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا اسلم المللين واقرب الرجلين يسامح فى وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

وقالوا يعود الماء فى النهر بعد ما عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى ان يرجع الماء عائدا ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون وقال الشاعر

اذا ما سال عهد أخيك يوما وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ولا يراجع أخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال أشجع بن عمرو السلمى

انى رأيت لها مواصلة كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف

تداركت نفسى فعزيتها وبغضتها فيك آمالها

وماطابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها لها

ومامثل من هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن هرمة

فانك واطراحك وصل سلمى لاحرى فى مودتها فكوب
كشاقبة لحلى مستعار لاذنيها فشانهما الثقوب
فادت حلى جارتها اليها وقد بقيت باذنيها ندوب

واذا صفت له أخلاق من سبره و تمهدت لديه أحوال من خبره وأقدم على اصطفائه أخاوعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته وقال عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق وقال بعض الحكماء من جادلك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فاول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه فى غير محرم ثم نصحه فى السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة او يناله من نكبة فان مراقبته فى الظاهر نفاق وتركه فى الشدة لؤم وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير اصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوق٧ يومه وقيل يارسول الله أى الاصحاب خير قال الذى اذا ذكرت اعانك وواساك وخير منه من اذا نسيت ذكرك وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واساك وخير منه من كفاك وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول اللهم انى أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتى الا بموافقة شهوتى وممن ساعدنى على سرور ساعتى ولا يفكر فى حوادث غدى وقال بعض البلغاء عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة وقال بعض البلغاء ماودك من اهمل ودك ولا احبك من أبغض حبك وقال بعض الشعراء

وكل اخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا اقبل فاذا ادبر الزمان ادبر عنك فاخذ هذا المعنى الشاعر فقال

شر الاخلاء من كانت مودته مع الزمان اذا ماخاف اورغبا
اذا وترت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدى مسالمة اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

٧ هكذا بالاصل

وينبغي ان يتوقى الافراط فى محبته فان الافراط داع الى التقصير ولان تكون الحا
بينهما نامية أولى من ان تكون متناهية وقد روى ابن سيرين عن أبى هريرة أن رسو
الله صلى الله عليه وسلم قال أحبب حبيبك هونا ماعسى ان يكون بغيضك يوما ما وابغ
بغيضك هونا ماعسى ان يكون حبيبك يوما ما وقال عمر بن الخطاب رضى الله ع
لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقال أبو الاسود الدؤلى

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى　　فانك راء ماعملت وسامع
واحبب اذا احببت حبا مقاربا　　فانك لاتدرى متى انت نازع
وابغض اذا ابغضت غير مباين　　فانك لاتدرى متى انت راجع

﴿وقال عدى بن زيد﴾

لا تأمنن من مبغض قرب داره　　ولا من محب ان يمل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود فى النصح والتناهى فى رعاية ما بينهما من الح
فليس فى ذلك افراط وان تناهى ولا مجاوزة حد وان أكثر وأوفى فتستوى حالتاه
فى المغيب والمشهد ولا يكون مغيبهما افضل من مشهدهما اولى فان فضل المشهد ع
المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ وقال بعض الشعراء

على لاخوانى رقيب من الصفا　　تبيد الليالى وهو ليس يبيد
يذكرنهم فى مغيبى ومشهدى　　فسيان منهم غائب وشهيد
وانى لاستحى أخى ان أبره　　قريبا وان اجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط فى زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعي
الهجران وكثرتها سبب الملال وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى هريرة رضى الله
عنه ياأباهريرة زرغبا تزدد حبا وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم　　اذا اكثرت ملك من تزور

(وقال آخر)

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل　　هجرانه فيلج فى هجرانه
ان الصديق يلج فى غشيانه　　لصديقه فيمل من غشيانه
حتى يراه بعد طول سروره　　بمكانه متثاقلا بمكانه

واذا توانى عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد وقد قال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك وقال منصور النمرى

اقلل عتاب من استربت بوده ليست تنال مودة بعتاب

﴿ وقال بشار بن برد ﴾

اذا كنت فى كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

وان انت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت واى الناس تصفو مشاربه

فعش واحدا أو صل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان ان تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لان من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا واقترح وصفا معجزا وقد قالت الحكماء أى عالم لا يهفو وأى صارم لا ينبو وأى جواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا يامن زلته ودوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذى لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لخالد بن صفوان أى اخوانك أحب اليك قال من غفر ذللى وقطع عللى وبلغنى املى وقال بعض الشعراء

ما كدت الخص عن أخى ثقة الا ندمت عواقب الفحص

وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

احب من الاخوان كل مواتى وكل غضيض الطرف عن عثراتى

يوافقنى فى كل أمر اريده ويحفظنى حيا وبعد وفاتى

فمن لى بهذا ليت انى أصبته فقاسمته مالى من الحسنات

تصفحت اخوانى وكان أقلهم على كثرة الاخوان اهل ثقاتى

( وأنشد ثعلب )

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد　　بكفيك فى ادباره متعلقا

اذا انت لم تترك اخاك وزلة　　اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكى الاصمعى عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوى الاخوان يدم لك ودهم ووصى بعض الادباء أخاله فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من أياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة　　فلست غدا عن عثرتى متجاوزا

وكيف يرجيك البعيد لنفعه　　اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا

ظلمت أخا كلفته فوق وسعه　　وهل كانت الاخلاق الاغرائزا

وقال أبو مسعود كاتب الرضى كنا فى مجلس الرضا فشكا رجل من اخيه فانشد الرضى

اعذر أخاك على ذنوبه　　واستر وغض على عيوبه

واصبر على بهت السفيه　　وللزمان على خطوبه

ودع الجواب تفضلا　　وكل الظلوم الى حسيبه

واعلم بان الحلم عنـــد الغيظ احسن من ركوبه

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أجود قريش فى زمانه ما رأيت قوما الأم من اخوانك قال مه ولم ذلك قالت أراهم اذا أيسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ويتركوننا فى حال الضعف منا عنهم فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتاولوا الهفوات من اخوانهم وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة　　فكن أنت محتالا لزلته عذرا

احب الفتى ينفى الفواحش سمعه　　كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعى الصدر لا باسط اذى　　ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا

والداعى الى هذا التاويل شيآن التغافل الحادث عن الفطنة والتالف الصادر عن الوفاء وقال بعض الحكماء وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل وقال اكثم

ابن صيفى من شدد نفر ومن تراخى تالف والشرف فى التغافل وقال شبيب بن شيبة الاريب العاقل هو الفطن المتغافل وقال الطائى

ليس الغبي بسيد فى قومه ‏ ‏ لكن سيد قومه المتغابى

وقال أبو العتاهية

ان فى صحة الاخاء من النا ‏ ‏ س وفى خلة الوفاء لقله

فالبس الناس مااستطعت على النق ‏ ‏ ص والالم تستقم لك خله

عش وحيدا ان كنت لاتقبل العذ ‏ ‏ روان كنت لاتجاوز زله

من أب واحد وأم خلقنا ‏ ‏ غير أنا فى المال أو لا دعله

ومما يتبع هذا الفصل تالف الاعداء بما يثنيهم عن البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط السودد فانه ما أحد يعدم عدوا او لا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء والحسدة كما قال البحترى

ولن تستبين الدهر موضع نعمة ‏ ‏ اذا انت لم تدلل عليها بحاسد

فان أغفل تالف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر حليمهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غراما والزعامة ملاما وروى ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس وقال سليمن بن داود عليهما السلام لابنه لاتستكثر أن يكون لك ألف صديق فالالف قليل ولا تستقل ان يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومى هذا المعنى فقال

تكثر من الاخوان مااستطعت انهم ‏ ‏ بطون اذا استنجدتهم وظهور

وليس كثيرا ألف خل وصاحب ‏ ‏ وان عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما أفدت فى ملكك هذا قال مودة الرجال وقال بعض الحكماء من علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد فى عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته

وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للافوه واسمه صلة بن عمرو حيث يقول

بلوت الناس قرنا بعد قرن　　فلم ارغير ختال وقالى
وذقت مرارة الاشياء جمعا　　فما طعم أمر من السؤال
ولم ارفى الخطوب اشد هولا　　واصعب من معاداة الرجال

(وقال القاضي التنوخي)

الق العدو بوجه لاقطوب به　　يكاد يقطر من ماء البشاشات
فاحزم الناس من يلقى اعاديه　　في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول أصدقه　　وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشد عن الربيع للشافعي رضي الله تعالى عنه

لما عفوت ولم احقد على احد　　ارحت نفسي من هم العداوات
اني أحيي عدوي عند رؤيته　　لادفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للانسان ابغضه　　كانما قد حشا قلبي محبات
الناس داء دواء الناس قربهم　　وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وان كان بتالف الاعداء ماموراً والى مقاربتهم مندوبا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لاتزول وانما يستكفي بالتالف اظهارها ويستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لايزول وجوهر لايتغير. وقال الشاعر

واذا عجزت عن العدو فداره　　وامزح له ان المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها　　تعطي النضاج وطبعها الاحراق

﴿ فصل ﴾ وأما البر وهو الخامس من أسباب الالفة فلانه يوصل الى القلوب الطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال وتعاونوا على البر والتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته . وروى الاعمش عن

خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها وحكى ان الله تعالى أوحى الى داود على نبينا وعليه السلام ذكر عبادي احساني اليهم ليحبوني فانهم لا يحبون الا من أحسن اليهم . وأنشدني ابو الحسن الهاشمي

الناس كلهم عيال * الله تحت ظلاله * فاحبهم طراً اليه * أبرهم لعياله

والبر نوعان . صلة ومعروف فاما الصلة فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها واباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون . وروى محمد بن ابراهيم التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السخي قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار وقال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير امساك فجذب عمامته اليه وقال يا زبير أنا رسول الله اليك والى غيرك يقول انفق انفق عليك ولا توك فاوك عليك وروى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم اعط منفقا خلفا وممسكا تلفا وانزل في ذلك القرآن فامامن أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني بالخلف من عطائه فعند هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما لسادات الناس في الدنيا الاسخياء وفي الآخرة الاتقياء وقيل في منثور الحكم الجود عن موجود وقيل في المثل سودد بلاجود كملك بلا جنود وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن أضعف ازداد وقال بعض الفصحاء جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله يبغضه الى أولاده وقال بعض الفصحاء خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح ابن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله    ويستره عنهم جميعا سخاؤه

تغط بأثواب السخاء فانني　　أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وحد السخاء بذل مايحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب الى الكرم ينكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي الى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهي عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمي كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا. وقد قال الله تعالى: «ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة». وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أقسم الله تعالى بعزته لايجاوره بخيل. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن الظالم وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة . وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته وقال بعض الشعراء

اذا كنت جماعا للمال ممسكا　　فانت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموما الى غير حامد　　فيأكله عفوا وأنت دفين

وتظاهر بعد ذوي النباهة بحب الثناء مع امساك فيه فقال بعض الشعراء

أراك تؤمل حسن الثناء　　ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو بطنة　　يمن كثيرا ويعطي قليلا

وقد بينا حب الثناء وحب المال لان الثناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا وقال بعض الشعراء

جمعت امرين ضاع الحزم بينهما　　تيه الملوك وأخلاق المماليك
اردت شكرا بلا بر ولا صلة　　لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة　　وما اراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به　　فما سبقت الى شيء سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذما وهى الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف فى الطلب واما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره وقد روى العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم ابن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجده ما عاش ما يغنيه) وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللؤم واما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها اهل فان كان بالخالق كان شكا يؤل الى ضلال وان كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه فى غيره وان رأى فيها سوأ اعتقده فى الناس وقد قيل فى المثل كل اناء ينضح بما فيه فان قيل قد تقدم من قول الحكماء ان الحزم سوء الظن قيل تاويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم * وأما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا اصلاح مامول وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال للانصار من سيدكم قالوا الحر بن قيس على بخل فيه فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء أدوأ من البخل قالوا وكيف ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم ان قوما نزلوا بساحل البحر فكره البخلهم نزول الاضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال الى الاضياف ببعد النساء وتعتذر النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء واما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير وقد قال الله تعالى (ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين) وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (ما عال من اقتصد) وقد قال المامون رحمه الله لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه وقال بعض البلغاء لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف * واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لان

المسرف يخطىء فى الزيادة والمبذر يخطىء فى الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطأها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكأنه بتبذيره قد يضع الشيء فى غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لان المال أقل من أن يوضع فى كل موضع من حق وغير حق وقد قال معاوية رضى الله عنه كل سرف فبازائه حق مضيع . وقال بعض الحكماء الخطأ فى اعطائه ما ينبغى ومنع ما لا ينبغى واحد وقال سفيان الثورى رضى الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما فى يده حتى تسخو انفسه عما بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل

وقد حكى أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام اتدرى لما اتخذتك خليلا قال لا يارب قال لانى رأيتك تحب أن تعطى ولا تحب أن تاخذ وروى سهل بن سعيد الساعدى رضى الله عنه قال أتى رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله مرنى بعمل يحبنى الله عليه ويحبنى الناس فقال ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس وقال أيوب السختيانى لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان ما الزهد فى الدنيا قال الزهد فى الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يابنى استقل الكثير مما تعطى واستكثر القليل مما تاخذ فان قرة عيون الكرام فى الاعطاء وسرور اللئام فى الاخذ ولا تعد الشحيح أمينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب . وقال بعض الحكماء السخاء سخا آن أشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك . وقال بعض البلغاء السخاء ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا وقال بعض الصلحاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود . وقال بعض الشعراء

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة ... وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين . أحدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال . والثانى ما كان عن طلب وسؤال فاما المبتدا به فهو أطبعهما سخاء وأشرفهما عطاء وسئل على كرم الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتدأ فاما ما كان عن مسالة فحياء وتكرم وقال بعض الحكماء أجل النوال ما وصل قبل السؤال وقال بعض الشعراء

وفتى خلا من ماله ... ومن المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله فكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب

فالسبب الاول — ان يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين الا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر ان تدين وفي الشكر ان تكرم وقال أبو العتاهية

ماالناس الا آلة معتملة للخير والشر جميعا فعله

والسبب الثاني — ان يرى في حاله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة عن كفايته فترى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدا وغنما مستجدا وقد قال الحسن البصري رحمه الله ماأنصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الحسن من أعظم الناس في عينك قالت من كان لي اليه حاجة وقال الشاعر

وماضاع مال ورث الحمد أهله ولكن اموال البخيل تضيع

والسبب الثالث — ان يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته واشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء ان يكف وقد حكى ان رجلا ساير بعض الولاة فقال ماهزل برذونك فقال يده مع ايدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذي بلغ مالا يبلغه صريح السؤال ولذلك قال أكثم بن صيفي السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل وحكى ان عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبد الله بن طاهر

أبى دهرنا اسعافنا في نفوسنا واسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك فيهم اتمها ودع امرنا ان المهم مقدم

فقال عبيد الله ما احسن ماشكى امره بين اضعاف مدحه ثم قضى حاجته وقال بعض الشعراء ومن لا يرى من نفسه مذكرا لها رأى طلب المستنجدين ثقيلا

والسبب الرابع — أن يكون ذلك رعاية ليد او جزاء على صنيعة فيرى تادية الحق عليه طوعا اما انفة واما شكرا ليكون من اسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عتيقا قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافاة عتق وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

وليست أيادي الناس عندي غنيمة ورب يد عندي اشد من الاسر

والسبب الخامس أن يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيد الرئاسة هو لها

محب وعلى طلبها مكب وقد قال الشاعر

حب الرياسة داء لادواء له      وقلما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها الا بالرغبة والاسعاف وقد قال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان وقال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك آماله وقال بعض الشعراء

أترجو أن تسود بلا عناء      وكيف يسود ذو الدعة البخيل

والسبب السادس أن يدفع به سطوة أعدائه ويستكف به نفار خصمائه ليصيروا له بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة اخوانا اما الصيانة عرض واما الحراسة مجد وقد قال أبو تمام الطائي

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد      ولا المجد في كف امرىء والدراهم

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه      مغارم في الاقوام وهى مغارم

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه

والسبب السابع أن يرب به سالف صنيعة أولاها ويراعى به قديم نعمة اسداها كيلا ينسى ما أولاه أو يضاع ما أسداه فان مقطوع البر ضائع ومهمل الاحسان ضال . وقد قال الشاعر

وسمت امرأ بالبر ثم اطرحته      ومن أفضل الاشياء رب الصنائع

وقال محمد بن داود الاصبهانى.

بدأت بنعمى اوجبت لى حرمة      عليك فعد بالفضل فالعود احمد

والسبب الثامن — المحبة يؤثر بها المحبوب على مال فلا يضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التى هى عنده أحظى والى نفسه اشهى والنفس الى محبوبها أشوق والى مما يليه أسبق وقد قال

فاز ربكم عمدا ولكن ذا الهوى      الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وهذا وان دخل فى أقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء * والسبب التاسع ليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وانما هى منه سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يعيز

بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

ليس يعطيك للرجاء ولا للـ　خوف لكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس فى مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد او خارجا عنه فيذم وقال قوم هذا هو السخى طبعا والجواد كرما وهو أحق من كان به ممدوحا واليه منسوبا وقال أبو تمام

من غير ماسبب يدنى كفى سببا　للحر ان يجتدى حرا بلا سبب

وقال الحسن بن سهل اذا لم أعط الا مستحقا فكانى أعطيت غريما وقال الشرف فى السرف فقيل له لا خير فى السرف فقال ولا سرف فى الخير وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه . وقال بشار

وما الناس الا صاحباك فمنهم　سخى ومغلول اليدين من البخل

فسامح يدا ما امكنتك فانها　تقل وتثرى والعواذل فى شغل

وقال آخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الذم يمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت افعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الامرين ذما وعلى اتفاقهما لوما وقال الشاعر

وكان المال ياتينا فكنا　نبذره وليس لنا عقول

فلما أن تولى المال عنا　عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى اما الممنوع فلانه قد فضل عليه من سواه واما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط الشكر وليس فيما افضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير ان يكون شرا يتقى ولمثل هذا كان منع الجميع ارضاء للجميع وعطاء يكون المنع ارضى منه خسران مبين فاما اذا كان البذل

والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين احدهما فى السائل والثانى فى المسئول . فاما ما كان معتبرا فى السائل فثلاثة شروط الشرط الاول ان يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان اضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم وقد قال بعض الحكماء الضرورة توقع الصورة وقال بعض الشعراء

ألا أقبح الله الضرورة إنها    تكلف اعلى الخلق أدنى الخلائق
ولله در الاتساع فانه    يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت

اذا لم تكن إلا الاسنة مركبا    فلا رأى للمضطر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الامرين أن يكون وان جاز أن لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح فى الطلب وتراعى ما استقام به الحال وان ناله ذل ولحقه وهن فيتناول صاحبها قول البحترى

وربما كان مكروه الامور الى    محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعى النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر

وقد يكتسى المرء خز الثياب    ومن دونها حالة مضنية
كما يكتسى خده حمرة    وعلته ورم فى الرية

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطامع اللؤم فان البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغاد    على جيف تطيف بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذى هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه نفسا هل يحسن به أن يرى لوحوش البهائم عليه فضلا وقد قال الشاعر

على كل حال يا كل المرء زاده    على البؤس والضراء والحدثان

والفضل فى مثل ما قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك أعطاك فقال والله ما أسال الدنيا ممن يملكها ووصف بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقروا اغضوا على الضر حسبة    وان ايسروا عادوا اسراعا الى الفقر

فامامن يسال غير ضرورة مست ولاحاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلما تجد مثله ملحوظا أومو لامحفوظا لان الحرمان قاده الى اضيق الارزاق واللؤم ساقه الى اخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الااراقه ولاذل الااذاقه كما قال عبدالصمد ابن المعذل لابى تمام الطائى

أنت بين اثنتين تبرز للنا　　س وكلتاهما بوجه مذلل
لست تنفك طالبا لوصال　　من حبيب أوطالبا لنوال
أى ماء لحر وجهك يبقى　　بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكتسبا يعونه ولقدر على مايصونه وقدقال الشاعر

لاتطلبن معيشة بتذلل　　فلياتينك رزقك المقدور
واعلم بانك آخذ كل الذى　　لك فى الكتاب مقدر مسطور

والشرط الثانى من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن أبطائه فلا يجد لنفسه فى التاخير فسحة ولا فى التمادى مهلة فيصير من المعذورين وداخلا فى عداد المضطرين فاما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط وقال الشاعر

أبى لى أغضاء الجفون على القذى　　يقينى ان لاعسر الامفرج
ألاربما ضاق القضاء باهله　　وامكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثالث اختبار المسؤول أن يكون مرجو الاجابة مامول النجح اما لحرمة السائل أوكرم المسئول فان سال لئيما لايرعى حرمة ولايولى مكرمة فهو فى اختياره ملوم وفى سؤاله محروم وقدقال بعض البلغاء المخذول من كانت له الى اللئام حاجة وقد قال بعض البلغاء أذل من اللئيم سائله واقل من البخيل نائله وقال بعض الشعراء

من كان يامل أن يرى　　من ساقط نيلا سنيا
فلقد رجا أن يجتنى　　من عوسج رطبا جنيا

واما الشروط المعتبرة فى المسؤول فثلاثة

الشرط الاول أن يكتفى بالتعريض ولايلجىء الى السؤال الصريح ليصون السائل

عن ذل الطلب فان الحالة ناطقة والتعريض كاف وقد قال الشاعر

أقول وستر الدجى مسبل كما قال حين شكى الضفدع
كلامى ان قلته ضائع وفى الصمت حتفى فما أصنع

وربما فهم المسئول الاشارة فالجا الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل ليخجل فيمسك ويستحى فيكف فيكون كما قال أبو تمام

من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب

والشرط الثانى ـ أن يلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان أعطى ومعذورا ان منع . وقد قال بعض الحكماء الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره . وقال ابن لنكك ان ابا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر فقال

لا تدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسئول
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مامول
تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بانك عن قليل صائر خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث ـ تصديق الامل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانها لا يخلوان من أربع أحوال (فالحال الاولى) أن يكون السائل مستوجبا والمسئول متمكنا فالاجابة ههنا تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل الا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان

انى رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذكرت المكارم مرة فى مجلس أنتم به فتقنعوا

فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا فى صنيع مشكور وبر مذخور وقد قيل لبخيل لم حبست مالك قال للنوائب فقيل له قد نزلت بك وقال بعض الشعراء

مالك من مالك الا الذى قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالى ولو فتشوا رأيت اعمالك أعمى لكا

قد أسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بان لا حق له مذموما كمشكور ومأثوما كمأجور وقال أبو العتاهية

خزن البخيل على صالحه اذ لم يثقل بره ظهري
ما فاتني خير امرىء وضعت عني يداه مؤنة الشكر

فاذا لم يكن للرد في مثل هذه الحال سبيل فظر فان كان التاخير مضرا عجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه ان لا يلجىء الى الحاج عليه وقال محمد بن حازم

ومنتظر سؤالك بالعطايا وأشرف من عطاياه السؤال
اذا لم ياتك المعروف طوعا فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان في الوقت مهلة وفي التاخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى أن الاولى تعجيل الوعد ولاثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل الوعد ثم بآجل الانجاز ويكون المسئول موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العدة عطية . وقال الفضل بن سهل لرجل ساله حاجة أعدك اليوم وأحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وأتزين بثوب الوفاء ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعد وأنت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها الان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجاه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه . وقال بعض البلغاء اذا أحسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك لا تخلو في ذلك من ذنب تكتسبه أو عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الى أن تعجيل البذل فعلا من غير وعد أولى تقديمه من غير ترقب ولا انتظار أحرى وانما يقدم الوعد أحد رجلين اما معوز ينتظر جده واما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضح مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعراء

يا أيها الملك المقدم أمره شرقا وغربا

امنن بختم صحيفتى مادام هذا الطين رطبا
واعلم بان جفافة مما يعيدالسهل صعبا

قالوا ولان فى الرجوع عنه من الانكسار وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار وفى العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بره ويوهن شكره وقال الشاعر

ان الحوائج ربما أزرى بها عند الذى تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة فاعلم بان تمامها تعجيلها

(والحال الثانية) ان يكون السائل غير مستوجب والمسئول غير متمكن ففى الرد فسحة وفى المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا معذور ينصف وقال ابو العتاهية يصف الناس

يارب ان الناس لا ينصفوننى فكيف وان انصفتهم ظلمونى
فان كان لى شئ تصد والاخذه وان جئت ابغى شيئهم منعونى
وان نالهم بذلى فلاشكر عندهم وان انالم ابذل لهم شتمونى
وان طرقتنى نكبة فكهوابها وان صحبتنى نعمة حسدونى
سأمنع قلبى ان يحن اليهم واغمض عنهم ناظرى وجفونى
واقطع ايامى بيوم سهولة اقضى بها عمرى ويوم حزون
الا ان اصفى العيش ماطاب غبه وما قلته فى لذة وسكون

(والحال الثالثة) ان يكون السائل مستوجبا والمسئول غير متمكن فيأتى بالحمل على النفس ما امكن من يسير يسد به خلة أو يدفع به مذمة أو يوضح من اعذار المعوزين وتوجع المتألمين ما يجعله فى المنع معذورا وبالتوجع مشكورا وقد قال أبو النصر العتبى رحمه الله تعالى

الله يعلم انى لست ذا بخل ولست ملتمسا فى البخل لى عللا
لكن طاقة مثلى غير خافية والنمل يعذر فى القدر الذى حملا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار اضنى جسدا وازيد كمدا كما قال الشاعر

وكنت كبار السوق قص جناحه يرى كلما طار حسرات طائر

يرى طائرات الجو تخفق حوله فيذكر اذريش الجناحين وافر

(والحال الرابعة) أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤل متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض أو قبح هجاء ممض كان البذل اليه مندوبا صيانة لا جودا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (ما وقى به المرء عرضه فهو له صدقة) وان أمن من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة والامل بالاياس ولما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضى الى الشح وأنشد الاصمعى عن الكسائى

كأنك فى الكتاب وجدت لاء محرمة عليك فلا تحل

فما تدرى اذا أعطيت مالا أيكثر من سماحك أم يقل

اذا حضر الشتاء فأنت شمس وان حضر المصيف فأنت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء فى غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت . وقد قال بعض الشعراء

لا تجد بالعطاء فى غير حق ليس فى منع غير ذى الحق بخل

انما الجود ان تجود على من هو للجود والندى منك اهل

فاما من أجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فلا اعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه فى الرد فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما فى المطل من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر والعرب تقول فى أمثالها لمطل احد المنعين واليأس احد النجحين وقال بشار بن برد

أظلت علينا منك يوما غمامة أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها

فلا غيمها يجلى فييأس طامع ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

ثم اذا أنجز وعده وأوفى بعهده لم يتبع نفسه ما أعطى ويسر ان كانت يده العليا فقد قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وقال الشاعر

فانك لا تدرى اذا جاء سائل أأنت بما تعطيه أم هو أسعد

عسى سائل ذو حاجة ان منعته من اليوم سؤلا أن يكون له غد

وليكن من سروره اذا كانت الارزاق مقدرة ان تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لا تنتقل عنه بمنع ولا تتحول عنه بإياس وحكى ان رجلا شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوله الى منزلى وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة ما فعل برذونك قال اشتدت على مؤنته فبعته قال أفتراه خلف رزقه عندك وقال ابن الرومى رحمه الله

ان لله غير مرعاك مرعى ترتعيه وغير مائك ماء

ان بالبرية لطفا سبق الامهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى واكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذى حكاه ابو بكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان اعرابيا أتاه فقال

ياعمر الخير جزيت الجنة اكس بنياتى وأمهنه

وكن لنا من الزمان جنه أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضى الله عنه فان لم افعل يكون ماذا فقال اذا أبا حفص لاذهبنه

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

يكون عن حالى لتسألنه يوم تكون الاعطيات هنه

وموقف المسئول بينهنه اما الى نار واما جنه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال ياغلام اعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره أما والله لا أملك غيره واذا كان العطاء على هذا الوجه خالا من طلب جزاء وشكر وعريا عن امتنان ونشر فكان ذلك أشرف للباذل وأهنا للقابل وأما المعطى اذا التمس بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لانه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفى هذين من الذم ما ينافى السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا متربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تاويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه الذى يعطى عطية

يلتمس بها افضل منها وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول فى تاويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال ابو العتاهية

وليست يدا أوليتها بغنيمة    اذا كنت ترجو ان تعد لها شكرا

غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة    فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم ان الكريم يجتدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الا عنفا كما قد قال الشاعر

رأيتك مثل الجوز يمنع لبه    صحيحا ويعطى خيره حين يكسر

فاحذر ان تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سبيلا الى اعطائك فيجرى عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبة لا لؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

صرت كانى ذبالة نصبت    تضىء للناس وهى تحترق

وأما النوع الثانى من البر فهو المعروف ويتنوع أيضا نوعين قولا وعملا فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب ان يكون محدودا كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تاويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا انها الكلام الطيب وكان سعيد بن جبير يتاول انها الصلوات الخمس وروى سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قال انكم لن تسعوا الناس باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم انشد عنده قوله الاعرابى هذا

وحى ذوى الاضغان تسب قلوبهم * تحيتك الحسنى فقد يرفع النعل

فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما * وان حبسوا عنك الحديث فلا تسل

فان الذى يؤذيك منه سماعه * وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا وقيل للعتابى انك تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع ضغينة بأيسر مؤنة واكتساب اخوان بأيسر

مبذول وقيل فى منثور الحكم من قل حياؤه قل أحباؤه وقال بعض الشعراء

ابنى ان البر شيء هين * وجه طليق وكلام لين

﴿وقال بعضهم﴾ المرء لا يعرف مقداره * مالم تبن للناس أفعاله

وكل من يمنعنى بشره * فقلما ينفعنى ماله

واما العمل فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس والمعونة فى النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس فى هذه الامور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول لانها وان كثرت فهى أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها فى اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها فى التخفيف عنه والمساعدة له وقد روى محمد ابن المنكدر عن جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة وقال النبى صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر باضعاف جحود الكافر . وقال الحطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العرف بين الله والناس

﴿وأنشد الرياشى﴾ يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كفور أم شكور

ففى شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

فينبغى لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم امكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلا . وقد قال الشاعر

مازلت أسمع كم من واثق خجل حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مجبورة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عليه وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شىء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وقيل لانوشروان ما أعظم المصائب عندكم فقال ان تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد من أخر الفرصة عن

وقتها فليكن على ثقة من فوتها وقال بعض الشعراء

اذا هبت رياحك فاغتنمها ... فان لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها ... فما تدرى السكون متى يكون
وان درت نياقك فاحتلبها ... فما تدرى الفصيل لمن يكون

وروى ان بعض وزراء بنى العباس مطل راغبا اليه فى عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل به

أما يدعوك طول الصبر منى ... على استئناف منفعتى وشغلى
وعلمك ان ذا السلطان غاد ... على خطرين من موت وعزل
وأنك ان تركت قضاء حقى ... الى وقت التفرغ والتخلى
ستصبح نادما أسفا معزى ... على فوت الصنيعة عند مثلى

وكتب بعض ذوى الحرمات الى وال قد قصر فى رعاية حرمته يقول

أعلى الصراط تريد رعية حرمتى ... أم فى الحساب تمن بالانعام
للنفع فى الدنيا أردتك فانتبه ... لحوائجى من رقدة النوام

وكتب أبو على البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال يقول

لنا كل يوم نوبة قد تنوبها ... وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما ... تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

واعلم أن للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل لها واخفاؤه عن اشاعة يستدل بها قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصنع اليك فانشره ولقد قال دعبل الخزاعى

اذا انتقموا أعلنوا أمرهم ... وان أنعموا أنعموا باكتتام
يقوم القعود اذا أقبلوا ... وتقعد هيبتهم بالقيام

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وابلغ دواعى نشره لما جبلت عليه النفوس من اظهار ما خفى واعلان ما كتم وقال سهل بن هارون

خل اذا جئته يوما لتسأله ... أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعه والله يظهرها ... ان الجميل اذا أخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن ان يراه مستكبرا وتقليله عن أن يكون مستكثرا لئلا يصير به مدلا بطرا ومستطيلا أشرا وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هناته واذا اصغرته عظمته واذا استرته اتممته وقال بعض الشعراء

زاد معروفك عندى عظما　　انه عندك مستور حقير

وتناسيت كان لم تاته　　وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا ( لا تبطلوا اصدقاتكم بالمن والاذى) وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير فى المعروف اذا احصى وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنيعة وقال بعض الادباء كدر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان وقد قال بعض البلغاء من من بمعروفه أسقط شكره ومن أعجب بعمله أحبط اجره وقال بعض الفصحاء قوة المن من ضعف المنن وقال بعض الشعراء

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن　　ليس الكريم اذا أسدى بمنان

( وقال أبو نواس)

فامض لا تمنن على يدا　　منك المعروف من كدره

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

لا تحملن لمن يمن　　من الانام عليك منه

واختر لنفسك حظها　　واصبر فان الصبر جنه

منن الرجال على القلوب　　أشد من وقع الاسنه

ومن شروط المعروف ان لا يحتقر منه شيئا وان كان قليلا نزرا اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره فمنع منه اعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضل من تركه فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يمنعكم من المعروف صغيره وقال عبد الله بن جعفر لا تستحى من القليل فان البخل اقل منه ولا تجبن عن

الكثير فانك أكثر منه وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كان    قليلا فلن تحيط بكله
ومتى تفعل الكثير من الخـ    ـير اذا كنت تاركا لاقله

على آن من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الادنى ويرتفق به التابع. وقد قال الشاعر

ظل الفتى ينفع من دونه    وماله فى ظله حظ

واعلم أنك لن تستطيع ان توسع جميع الناس معروفك ولا ان توليهم احسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهمناميا وصنيعك عنهم زاكيا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تنفع الصنيعة اى عند ذى حسب ودين وقال النبى صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى أهل الحفاظ وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

ان الصنيعة لا تكون صنيعة    حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها    لله أو لذوى القرابة أودع

وقيل فى منثور الحكم لا خير فى معروف الى غير عروف وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال

كحمار السوء ان أشبعته    رمح الناس وان جاع نهق

وقد قال بعض الحكماء على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فاخذه بعض الشعراء فقال

لعمرك ما المعروف فى غير أهله    وفى أهله الا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذى كان عنده    ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس فى شكر الصنيعة عندهم    وفى كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعة طابت واضعف نبتها    ومزرعة أكدت على كل زارع

وأما من اسدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر المعروف موثوقا وفى ملك الاحسان مرفوقا ولزمه ان كان من أهل المكافاة ان يكافى عليه وان لم يكن من أهلها ان يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من أودع معروفا فليشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره وروى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأنا أتمثل بهذه البيتين

ارفع ضعيفك لا يحد بك ضعفه  يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وان من  أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي على قول اليهودي قاتله الله لقد أتاني جبرائيل برسالة من ربي تعالى أيما رجل صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافاه وقيل في منثور الحكم الشكر قيد النعم وقال عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعدده من الانعام وقيل في منثور الحكم قيمة كل نعمة شكرها وقال بعض الحكماء كفر النعم من امارات البطر واسباب الغير وقال بعض الفصحاء الكريم شكور أو مشكور واللئيم كفور أو مكفور وقال بعض البلغاء لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر وقال بعض الادباء

شكر الاله بطول الثناء  وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء  وشكر الدنى بحسن العطاء

﴿وقال بعض الشعراء﴾

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد  لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره  فقال اشكروا لي ايها الثقلان

فان من شكر معروف من أحسن اليه ونشر افضال من أنعم عليه فقد أدى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك اتماما الشكره ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا . حكى ان الحجاج أتى اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فامر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه واطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطرى بن مفجاءة وكان من أصحابه فقال له عد الى قتال الحجاج عدو الله فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وأنشا يقول

أأقاتل الحجاج عن سلطانه  بيد تقر بانها مولاته
انى اذا لاخو الدناءة والذى  شهدت باقبح فعله غدراته
ماذا أقول اذا وقفت ازاءه  في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار على لا انى اذا  لاحق من جارت عليه ولاته

وتحدث الاقوام ان صنائعا غرست لدى فخنظلت نخلاته

وقيل فى منثور الحكم المعروف رق والمكافاة عتق ومن اشكر الناس الذى يقول

لاشكرنك معروفا هممت به ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا الومك ان لم يمضه قدر فالشئ بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور فى وصول بره واسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر ان يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابى

قد أورقت فيك آمالى بوعدك لى وليس فى ورق الآمال لى ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجى وحسن مكافاة الآمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا أن يفوت نفسه غنما ولا يحرمها ربحا فهذا وجه ثان . وقد يكون تارة ارتهانا للمأمون وحثا للمسؤل وبحسب ما أسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس . وقال بعض الادباء من حكماء المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما وقال ابن الرومى

وما الحقد الا توأم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى اساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض أدت ريع ما أنت زارع من البذر فيها فهى ناهيك من أرض

وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وان من أذم الخلائق وأسوأ الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس وقال بعض الأدباء من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة . وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد. وقال بعض البلغاء من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وأنشدنى بعض الادباء ماذكر انه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه

من جاور النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مغتالها

لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التى قالها
لئن شكرتم لازيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر ابقى لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الالفة الجامعة

( فاما القاعدة الثالثة ) فهى المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر . قال الله تعالى (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ) فاذا عدم المادة التى هى قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر شئ عليه لحقه من الوهن فى نفسه والاختلال فى دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشئ القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها أعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا فى جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الامور وقد أنبأ الله تعالى فى كتابه العزيز اخبارا واذكارا فقال سبحانه وتعالى (قال ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى) اختلف المفسرون فى تاويل ذلك فقال قتادة اعطى كل شئ ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد اعطى كل شئ صورته ثم هداه لمعيشته وقال ابن عباس رضى الله عنهما اعطى كل شئ زوجة ثم هداه لنكاحها وقال تعالى ( يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) يعنى معايشهم التى يزرعون ومتى يغرسون وقال تعالى (وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) قال عكرمة قدر فى كل بلد منها مالم يجعله فى الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد . وقال الحسن البصرى وعبد الرحمن بن زيد قدر أرزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة فى أرزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معايشهم دنيا يكون عليهم حكما وشرعا

يكون لهم قيما ليصلوا الى مودهم بتقديره ويطلبوا اسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لاينفردوا بارادتهم فيتغالبوا وتستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال الله تعالى (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ) قال المفسرون الحق فى هذا الموضع هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبه بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب. فاما المادة فهى حادثة عن اقتناء اصول نامية بذواتها وهى شيئان نبت نام وحيوان متناسل وقال الله تعالى ( وانه هو أغنى وأقنى ) قال ابو صالح اغنى خلقه بالمال واقنى جعل لهم قنية وهى اصول الاموال . وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب فى تجارة والثانى تصرف فى صناعة وهذان هما فرع لوجهى المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة . وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معايش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذا قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز

أما الاول من اسبابه وهى الزراعة فهى مادة اهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا واوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل فقال ( مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ) وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ( خير المال عين ساهرة لعين نائمة ) وقال صلى الله عليه وسلم ( نعمت لكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس فى أرض خوارة ) : وقال صلى الله عليه وسلم فى النخل هى الراسخات فى الوحل المطعمات فى المحل . وقال بعض السلف خير المال عين خرارة فى أرض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت وروى هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق فى خبايا الارض يعنى الزرع

. وحكى عن المعتضد انه قال رأيت على بن أبي طالب رضى الله عنه فى المنام يناولنى لمسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزائن الارض وقال كسرى للموبذ ما قيمة تاجى هذا فأطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان تكون مطرة فى نيسان فانها تصلح من مصالح الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك . ولقى عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزهرى فقال له ادلانى على مال اعالجه فأنشأ ابن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها لعلك يوما ان تجاب فترزقا

فيؤتيك مالا واسعا ذا امتنانة اذا ما مياه الارض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس فى تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جدواه ومن فضل الشجر فلثبوت أصله وتوالى ثمره * وأما الثانى من أسبابها وهو نتاج المادة فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم أمصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم ومالا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل فى النقلة بنفسه ويستغنى عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة وكانت جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقتيات رسله الهاما من الله لخلقه فى تعديل المصالح فيهم وارشادا لعباده فى قسم المنافع بينهم . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم مهرة مأمورة اى كثيرة النسل ومنه تأول الحسن وقتادة قوله تعالى ( امرنا مترفيها ) اى كثرنا عددهم واما السكة المأبورة فهى النخلة المؤبرة الحمل . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى الغنم سمنها معاش وصوفها رياش : وروى عن ابى ظبيان انه قال قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما مالك يا ابا ظبيان قال قلت عطائى الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل ان تليك غلمة من قريش لا تعد العطاء معهم مالا والسائبات النتاج . وحكى ان امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله انى اتخذت غنما ابتغى نسلها ورسلها وانها لا تنمى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم ما الوانها قالت سود فقال لها عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى مناكح الآدميين اغتربوا لا تضووا * واما الثالث من اسبابها وهى التجارة فهى فرع

لمادتى الزرع والنتاج فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تسعة اعشار الرزق في التجارة والحرث والباقى فى السائبات وهى نوعان تقلب فى الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار وقد رغب عنه ذووا الاقدار وزهد فيه ذووا الاخطار والثانى تقلب بالمال بالاسفار ونقلة الى الامصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير انه اكثر خطرا واعظم غررا فقد روى عن النبى عليه السلام انه قال ان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله يعنى على خطر. وفى التوراة يابن آدم احدث سفرا أحدث لك رزقا أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة: صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن الناس آلات للصناعة فاشرفهم نفسا متهيء لأشرفها جنسا كما أن أرذلهم نفسا متهيء لارذلها جنسا لان الطبع يبعث على مايلائمه ويدعو الى مايجانسه. وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج الى أقاصى الأرض قال لأرسطاطاليس: اخرج معى قال: قد نحل جسمى وضعفت عن الحركة فلا تزعجنى قال: فما أصنع فى عمالى خاصة قال: انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناه عن كلفة التجربة. وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر وتدبيره. فاما صناعة الفكر فقد ينقسم قسمين: أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا مخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها. والثانى ما أدت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى فى فضل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين. عمل صناعى وعمل بهيمى فالعمل الصناعى أعلاهما رتبة لانه يحتاج الى معاطاة فى تعلمه ومعاناة فى تصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة وهى الصناعة التى تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفى. لكل ساقطة لاقطة وكما قال المتلمس.

ولا يقيم على ضيم يسام به  إلا الأذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته    وذا يشج فلا يرثى له احد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين. احدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة. والثانى أن تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التى ركبهم الله عز وجل عليها فى ارتياد موادهم ووكلهم الى نظرهم فى طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم فى التماسها ليكون ذلك سببا لألفتهم. فسبحان من تفرد فينا بلطيف حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته. واذ قد وضح القول فى اسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور:

احدها أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير أن يتعدى الى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان منها فهذه احمد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال. «أوحى الله تعالى الى كلمات فدخلن فى أذنى ووقرن فى قلبى من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلم الله على كفاف» وروى حميد عن معاوية بن حيدة قال. قلت يا رسول الله. ما يكفينى من الدنيا قال. ما يسد جوعتك ويستر عورتك فان كان دار فذاك وإن كان حمار فبخ بخ فلق من خبز وجر من ماء وأنت مسئول عما فوق الازار. وقد روى عن ابن عباس ومجاهد فى قوله تعالى. «اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا» أن كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك. وروى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو فى المعنى صحيح لأنه بالزوجة والخادم مطاع فى أمره وفى الدار محجوب الاعن اذنه وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا توخى الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له. وقد روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شىء تركته لله» وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال. أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما فى يديك وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها. وحكى عبد الله بن المبارك قال

كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان استطعت ان تدع مما احل الله لك مايكون حاجزا بينك و بين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد اختلف أهل التاويل فى قوله تعالى. «فان له معيشة ضنكا» فقال عكرمة يعنى كسبا حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيي بن معاذ الدرهم عقرب فاذا أحسنت رقيتها و الا فلا تاخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه وقال بعض البلغاء خير الاموال ما أخذته من الحلال وصرفته فى النوال وشر الاموال ما أخذته من الحرام وصرفته فى الآثام وكان الاوزاعى الفقيه كثيرا مايتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه | يوما ويبقى بعده آثامه
ليس التقى بمتق لالهه | حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب مايجنى ويكسب اهله | ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربه | فعلى النبي صلاته وسلامه

وحكى عن ابن المعتمر السلمى قال الناس ثلاثة اصناف اغنياء وفقراء وأوساط فالفقراء موتى الامن اغناه الله بعز القناعة والاغنياء سكارى الامن عصمه الله تعالى بتوقع الغير واكثر الخير مع اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقير وبطر الغنى والامر الثانى ان يقصر عن طلب كفايته ويزهد فى التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم ان يكون كلا قصيا أو ضائعا شقيا وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كاد الحسد أن يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء مثلها فالغنى وان كان شيء فوق الموت فالمرض وان كان شيء مثله فالفقر وقيل فى منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد فى نيل مصر مكتوب على حجر

عقب الصبر نجاح وغنى | ورداء الفقر من نسج الكسل

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى | ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر

ومن أمل يمتد فى كل شارق  يرجعنى منه بحظ يد صفر
اذالم تدسنى الذنوب بعارها  فلست أبالى ماتشعث من أمرى

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد أعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى انما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعواز وقد روى معمر عن أيوب عن أبى قلابة قال ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خيرا فقالوا يارسول الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلى حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يارسول الله قال كلكم خير منه . وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته للحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل . وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقد روى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن يوم طلعت فيه شمسه الا وعلى جنبيها ملكان ينا ديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين يأيها الناس هلموا الى ربكم ان ماقل وكفى خير مما كثر والهى وروى زيد بن على ابن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم أجمعين انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال من قبل الفقر أنك لاتجد احدا يعصى الله ليفتقر فاخذه محمود الوراق فقال

ياعائب الفقر الا تزدجر  عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله  على الغنى ان صح منك النظر
انك تعصى لتنال الغنى  ولست تعصى الله كى تفتقر

﴿ وقال ابن المقفع ﴾

دليلك ان الفقر خير من الغنى  وان قليل المال خير من المثرى
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى  ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فأطاعته وصدقها فاجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما يا أخي من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف والزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول . وقال بعض الحكماء هيهات منك الغنى اذ لم يقنعك ما حويت . فامامن اعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى اكراهها سبيل ولا للحمل عليها وجه الا بالرياضة والمروءة وأن يستنزلها الى اليسير الذي لا تنفر منه فاذا استقرت عليه انزلها الى ماهو أقل منه لتنتهي بالتدريج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة وقد تقدم قول الحكماء ان المكروه يسهل بالتمرين فهذا حكم ما في الامر الثاني من التقصير عن طلب الكفاية ( وأما الامر الثالث ) فهو ان لا يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك أربعة أسباب أحدها منازعة الشهوات التي لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى ان ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة . وقد روى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أراد الله به خيرا حال بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد به شرا وكله الى نفسه وقد قال الشاعر

وانك ان أعطيت بطنك همه ... وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا

(والسبب الثاني) ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا اعذر وبالحمد احدى وأجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب وأحسن التقدير في

حالتی فائدته وافادته علی قدر الزیادة و بقدر الامکان لان المال آلة للمکارم وعون علی الدین ومتالف للاخوان ومن فقده من أهل الدنیا قلت الرغبة فیه والرهبة منه ومن لم یکن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به وقد روی عبد الله بن بریدة عن أبیه قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ان حساب أهل الدنیا هذا المال . وقال مجاهد الخیر فی القرآن کله المال (وانه لحب الخیر لشدید) یعنی المال واحببت حب الخیر عن ذکر ربی یعنی المال فکاتبوهم ان علمتم فیهم خیرا یعنی مالا وقال شعیب النبی علیه السلام انی أراکم بخیر یعنی المال وانما سمی الله تعالی المال خیرا اذا کان فی الخیر مصروفا لان ماأدی الی الخیر فهو فی نفسه خیر وقد اختلف أهل التأویل فی قوله تعالی (ومنهم من یقول ربنا آتنا فی الدنیا حسنة وفی الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فقال السدی وعبد الرحمن بن زید الحسنة فی الدنیا المال وفی الآخرة الجنة وقال الحسن البصری وسفیان الثوری الحسنة فی الدنیا العلم والعبادة وفی الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانیر خواتم الله فی الارض لا تؤکل ولا تشرب حیث قصدت بها قضیت حاجتک وقال قیس بن سعد اللهم ارزقنی حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال وقد قیل لابی الزناد لم تحب الدراهم وهی تدنیک من الدنیا فقال هی وان ادنتنی منها فقد صانتنی عنها وقال بعض الحکماء من أصلح ماله فقد صان الاکرمین الدین والعرض وقیل فی منثور الحکم من استغنی کرم علی أهله ومر رجل من ارباب الاموال ببعض العلماء فتحرک له واکرمه فقیل له بعد ذلک اکانت لک الی هذا حاجة قال لا ولکنی رأیت ذا المال مهیبا وسال رجل محمد بن عمیر بن عطارد وعتاب بن ورقاء فی عشر دیات فقال محمد علی دیة وقال عتاب الباقی علی فقال محمد نعم العون علی المجد الیسار وقال الاحنف بن قیس

فلو کنت مثر بمال کثیر ... لجدت وکنت له باذلا

فان المروءة لا تستطاع ... اذا لم یکن مالها فاضلا

وکان یقال الدراهم مراهم لانها تداوی کل جرح ویطیب بها کل صلح وقال ابن الجلال

رزقت مالا ولم ترزق مروءته ... وما المروءة الا کثرة المال

اذا أردت رقی العلیاء یقعدنی ... عما ینوه باسمی رقة الحال

وقيل فى منثور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة وقال اوس بن حجر

اقيم بدار الحزم مادام حزمها　　واحرى اذا حالت بأن اتحولا
فانى وجدت الناس الا اقلهم　　خفاف عهود يكثرون التنقلا
بنى أم ذى المال الكثير يرونه　　وان كان عبدا سيد القوم جحفلا
وهم لمقل المال أولاد علة　　وان كان محضا فى العشيرة مخولا

﴿ وقال بشر الضرير ﴾

كفى حزنا انى اروح واغتدى　　ومالى من مال اصون به عرضى
واكثر ماالقى الصديق بمرحبا　　وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

﴿ وقال آخر ﴾

أجلك قوم حين صرت الى الغنى　　وكل غنى فى العيون جليل
وليس الغنى الا غنى زين الفتى　　عشية يقرى اوغداة ينيل

وقد اختلف الناس فى تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على ان ما أحوج من الفقر مكروه وماأبطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغنى مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغنى ملابس وترك الدنيا أفضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بأن يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور أوساطها وقد مضى شواهد كل فريق فى موضعه بما أغنى عن اعادته . والسبب الثالث ان يطلب الزيادة ويقتنى الاموال ليدخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك فى حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقى بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لب منها سوء ظنه بخالقه انه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفى حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر فى احالتك

ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتي على شيء الا غيره وقيل في منثور الحكم المال ملول . وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لا تبقى لها . ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور رحاله وقد قيل انما مالك لك او للوارث او للجائحة فلا تكن أشقى الثلاثة وقال عبد الحميد اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كده حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه قال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها　　فما ينقضي حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤاخذ من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته واجرامه . وقد حكى ان هشام بن عبد الملك لما ثقل بكى ولده عليه فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما اسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بمالك قبل الممات　　والا فلا مال ان انت متا
شقيت به ثم خلفته　　لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
فجادوا عليه بزور البكاء　　وجدت عليهم بما قد جمعتا
وأرهنتهم كل ما في يديك　　وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وقد روى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ولني فقال النبي صلى الله عليه وسلم ياعباس ياعم النبي قليل يكفيك خير من كثير يرديك ياعباس ياعم النبي نفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها ياعباس ياعم النبي ان الامارة أولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها جزاء يوم القيامة فقال يارسول الله الا من عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الاقارب وقال رجل للحسن البصري رحمه الله اني أخاف الموت واكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحاق به . وقيل في منثور الحكم كثرة مال الميت تعزي ورثته عنه فاخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال وزاد

أبقيت مالك ميراثا لوارثه　　فليت شعري ما أبقى لك المال

القوم بعدك فى حال تسرهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فمايبكيك من أحد واستحكم القول فى الميراث والقال
ألهتهم عنك دنيا أقبلت لهم وأدبرت عنك والايام احوال

( والسبب الرابع ) ان يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفا باحتجانه فهذا اسوأ الناس حالا فيه وأشدهم حرمانا له قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه ومذاما له وفى مثله قال الله تعالى ( الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ) فقال النبى صلى الله عليه وسلم تباً للذهب تباً للفضة فشق ذلك على اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أى مال نتخذ فقال عمر رضى الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يارسول الله ان أصحابك قد شق عليهم فقالوا أى مال نتخذ فقال لسانا ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه • وروى شهر بن حوشب عن ابى أمامة قال مات رجل من اهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبى صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذاك فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك اموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان فى هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ماليس بهما اليه حاجة فصار مااحتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى فانت اذا والمقترون سواء
على ان فى الاموال يوما تباعة على أهلها والمقترون براء

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

ان الذى رزق اليسار فلم يصب حمدا ولا أجراً لغير موفق
والجد يدنى كل شئ شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
فاذا سمعت بان مجدوداً حوى عودا فاورق فى يديه فحقق
واذا سمعت بان محدوداً أتى ماء ليشربه فجف فصدق

اللب العقل تقول لبيب ذو لب والجد فى اللغة الحظ وهو البخت والجد ايضا العظمة

ومنه قوله تعالى وأنه تعالى جد ربنا والجد مصدر جد الشيء اذا قطع والجد بالكسر الانكماش فى الامور أى الاجتهاد فيها وهو أيضاً الحق ضد الهزل وبالحاء اذا منع الرزق ومجدود محدود لا يقال فيها الا بما لم يسم فاعله وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى ان يستولى عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه حب المال على الحرص فى طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح اصل لكل ذم وسبب لكل لؤم لان الشح يمنع من آداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم شر مااعطى العبد شح هالع وجبن خالع • وقال بعض الحكماء الغنى البخيل كالقوى الجبان • وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط فى الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه الثلاث خصال هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال نفسه واسخاط خالقه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحريص الجاهد والقنوع الزاهد يستوفيان اكلهما غير منتقص منه شيء فعلام التهافت وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ماعرفت من وجه رجل حرصا فرأيت ان فيه مصطنعا وقال آخر الحريص اسير مهانة لا يفك اسره وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لاتنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لاتنال بالشدة والمكالبة فذلل للمقادير نفسك واعلم بأنك غير نائل بالحرص الاحظك وقال بعض الادباء رب حظ أدركه غير طالبه ودر أحرزه غير حالبه وانشدنى بعض اهل الادب لمحمد بن حازم

يا أسير الطمع الكا ... ذب فى غل الهوان

ان عز الياس خير ... لك من ذل الامانى

سامح الدهر اذا عز ... وخذ صفو الزمان

ربما اعدم ذو الحر ... ص وأثرى ذو التوانى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه اذا وصل بالحرص الى ما أمل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل واذا لم يصل رأى اضاعة العناء لوما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من عنائه اقوى رجاء وأبسط أملا وقد

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص وطول الامل وقيل للمسيح عليه السلام مابال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا مالم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عله لعلم ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضاء والقناعة بالقسم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصدوا فى الطلب فان مارزقتموه اشد طلبا لكم منكم له وماحرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم وروى ان جبرائيل على نبينا وعليه السلام هبط على النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك اقرأ ( بسم الله الرحمن الرحيم ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خيرا وأبقى ) فامر النبى صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى من لم يتادب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . وقيل مكتوب فى بعض الكتب ردوا أبصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا: وقال مجاهد فى تاويل قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) قال بالقناعة وقال اكثم بن صيفى من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والمروءة وقال بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعى ويظفر الوادع الهادى فاخذه البحترى فقال

لم الق مقدورا على استحقاقه ... فى الحظ اما ناقصا او زائدا
وعجبت للمحدود يحرم ناصبا ... كلفا وللمجدود يغنم قاعدا
ماخطب من حرم الارادة قاعدا ... خطب الذى حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن اطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر وقال بعض الادباء

انى أرى من له قنوع ... يدرك مانال من تمنى
والرزق ياتى بلا عناء ... وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه . فالوجه الاول ان يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لماسواه وهذا اعلى منازل أهل القناعة وقال الشاعر

اذا شئت ان تحيا غنيا فلا تكن على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار ازهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف يؤدي الى العفاف . وقال بعض الادباء رب ضيق أفضل من سعة وعناء خير من دعة وأنشدني بعض أهل الادب وذكر انه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

أفادتني القناعة كل عـز وأي غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة
تحرز حين تغنى عن بخيل وتنعم في الجنان بصبر ساعة

والوجه الثاني ان تنتهي به القناعة الى الكفاية و يحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط حال المقتنع وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه وقال بعض الحكماء طلب ما فوق الكفاف اسراف وقال بعض البلغاء من رضي بالمقدور قنع بالميسور وقال البحتري

تطلب الاكثر في الدنيا وقد تبلغ الحاجـة منها بالاقـل

وأنشدت لابراهيم بن المدبر

ان القناعة والعفا ف لنينان عن الغنى
فاذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة الى الوقوف على ما سنح فلا يكره ما أتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة اما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت واما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذ تعذرت . وفي مثله قال ذو النون رحمة الله عليه من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة وقد روى الحسن بن علي عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرت عينه وقال ابو حازم الاعرج وجدت الدنيا شيئين شيأ هو لي لن أعجله قبل

أجله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيا هو لغيرى وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا أنله فيما بقى يمنع الذى لى من غيرى كما يمنع الذى لغيرى منى ففى أى هذين أفنى عمرى واهلك نفسى وقال ابو تمام الطائى

لاتاخذنى بالزمان فليس لى　　تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه　　روض الامانى لم يزل مهزولا
لوجار سلطان القنوع وحكمه　　فى الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لاتكمد عليه فانه　　ياتى ولم تبعث اليه رسولا

وانشدنى بعض أهل الادب لابن الرومى

جرى قلم القضاء بما يكون　　فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق　　ويرزق فى غشاوته الجنين

ونحن نسال الله تعالى أكرم مسئول وافضل مامول ان يحسن الينا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة وموبقات الشهوة. روى شريك ابن أبى نمر عن أبى الجذع عن اعمامه واجداده عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير أمتى الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتروا حتى يسالوا وقال ابو تمام الطائى

عندى من الايام مالوانه　　اضحى بشارب مرقد ما غمضا
لاتطلبن الرزق بعد شماسه　　فترومه شعبا اذا ما غيضا
ماعوض الصبر امرؤ الاراى　　مافاته دون الذى قد عوضا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة واخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التاديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لان لمحمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان اغفل تاديبها تفويضا الى العقل أو توكلا على ان تنقاد الى الاحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين واعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة او مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى

الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان أنبياء الله تعالى عن ادبه مستغنين وبعقولهم مكتفين وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام من أدبك قال ماأدبني احد ولكني رأيت جهل الجاهل فجانبته وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها وقال أردشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح بكل لسان ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على أيام الزمان وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان أشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض وأعمق كان أشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لاتقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها وحكى الاصمعي ان اعرابيا قال لابنه يابني الادب دعامة ايد الله بها الالباب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وإن صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغني الارض وإن عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب أحد المنصبين. وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من اساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل اصله . وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك. وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض الفصحاء الادب يستر قبيح النسب وقال بعض الشعراء فيه

فما خلق الله مثل العقول ولا اكتسب الناس مثل الادب

وما كرم المرء الا التقى ولا حسب المرء الا النسب

وفي العلم زين لاهل الحجا وآفة ذي الحلم طيش الغضب

وأنشد الاصمعى رحمه الله

وان يك العقل مولودا فلست أرى ... ذا العقل مستغنيا عن حادث الغضب
انى رأيتهما كالمـــاء مختلطا ... بالترب تظهر منـه زهرة العشب
وكل من أخطاته فى موالده ... غريزة العقل حاكى البهم فى الحسب

والتاديب يلزم من وجهين احدهما مالزم الوالد لولده فى صغره والثانى مالزم الانسان فى نفسه عند نشاته وكبره فاما التاديب اللازم للاب فهو ان ياخذ ولده بمبادى الآداب ليانس بها وينشا عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمباديها فى الصغر لان نشاة الصغير على الشيء تجعله متطبعا به ومن اغفل فى الصغر كان تاديبه فى الكبر عسيرا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مانحل والد ولده نحلة افضل من أدب حسن يفيده إياه أو جهل قبيح يكفه عنه و يمنعه منه . وقال بعض الحكماء بادروا بتاديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ... ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الاحداث فى صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الادب

﴿ وقال آخر ﴾

ينشا الغصير على ما كان والده ... ان الاصول عليها ينبت الشجر

واما الادب اللازم للانسان عند نشاته وكبره فادبان ادب مواضعة واصطلاح وادب رياضة واستصلاح فاما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المالوف فى العادة ومجانبة ماصار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل مالم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزا فى العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا و يرون ماسواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جائزا فى العقل ان يوضع على خلافه .

واما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز فى العقل ان يكون بخلافها ولا ان تختلف العقلاء فى صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتى من ذلك شاهد الهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فالهمها فجورها وتقواها قال ابن عباس رضى الله عنهما بين لها ما تاتى من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعاليل كل شىء فى موضعه فانه اولى به واحق فاول مقدمات ادب الرياضة والاستصلاح ان لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى اخلاقه لان النفس بالشهوات آمرة وعن الرشد الرشد زاجرة وقد قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقد قال صلى الله عليه وسلم اعدى اعدائك نفسك التى بين جنبيك ثم اهلك ثم عيالك ودعت اعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه بعض الشعراء فقال

قلبى الى ما ضرنى داعى ... يكثر اسقامى واوجاعى

كيف احتراسى من عدوى اذا ... كان عدوى بين اضلاعى

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا اصرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هى عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها. وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه . وقال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فاما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن مساويها كان سوء الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا وقد قال الجاحظ فى كتاب البيان يجب ان يكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق فى التهمة ظلمها فاودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق فى مقدار حسن الظن اودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل وقال الاحنف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره اظلم ومن هدم دينه كان لمجده اهدم وذهب قوم الى ان سوء الظن بها ابلغ فى صلاحها واوفر فى

اجتهادها الان للنفس جور الا ينفك الا بالسخط عليها وغرور الا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تجور ادلالا وتغر مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وتموه عليه غرورها فصار بميسورها قانعا وبالشبهة من افعالها راضيا وقد قالت الحكماء من رضى عن نفسه اسخط عليه الناس وقال كشاجم

لم أرض عن نفسى مخافة سخطها ورضى الفتى عن نفسه اغضابها
ولو انني عنها رضيت لقصرت عما تريد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فاكثرت عذلى عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول ابو تمام الطائى

ويسئ بالاحسان ظنا لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لوما بل رأوا ذلك ابلغ فى الفضل وابعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد ان كان فى ملكها وغلبها بعد ان كان فى غلبها. وقد روى ابو حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه وقال عون بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما احبت ولا يغرنك ثناء من جهل امرك وقال بعض البلغاء من قوى على نفسه تناهى فى القوة ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروءة فحينئذ خذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجنت بتقويم عوجها واصلاح فسادها وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت يارسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما أصلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال أو ميل يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعافاة ضائع والمهمل بعد المراعاة ذائع وسنذكر من احوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوى على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معافاته من الادب وهى ستة فصول متفرعة

﴿الفصل الاول﴾ فى مجانبة الكبر الاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتاديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله

عن استزادة المتاد بين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التالف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوأ عن استقصاء ذمه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الافضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما أشبه ما قال بالحق وحكى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفني فقال بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته  وكان بالامس نطفة مذره

وفي غد بعد حسن صورته  يصير في اللحد جيفة قذره

وهو على تيهه ونخوته  ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقد كان المهلب أفضل من أن يخدع نفسه بهذا الجواب الفير الصواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم انه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقي وهو يقرىء الناس فلما فرغ قال أتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل أو ينفع فيه عذل وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل وأما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب * وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى أنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من

الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره
من حنق ويكسبه من حقد حكى عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك
بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغنى قتل اربعة فتقربت اليه ندمائهم قيل ومن هم قال
مقاتل بن مسمع ولى سجستان فاتاه الناس فاعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد
البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل
العاملون . وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمى خوف أهل البصرة أمر انخطب خطبة
أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد اكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله
شططا . ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا فى طريق فمرت به امرأة فقالت له
ياعبدالله كيف الطريق الى موضع كذا فقال ياهناه مثلى يكون من عبيد الله وأبو شمال
الاسدى اضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الى راحلتى
لاصليت له صلاة أبدا فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل
فقال ان يمينى يمين مصر فانظر الى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب الى حمق صاروا به
نكالا فى الاولين ومثلا فى الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة
وبلى به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره وقال
الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف
بعض الشعراء الانسان فقال

يامظهر الكبر اعجابا بصورته ... انظر خلاك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة ... وهى بخمس من الاقذار مضروب
أنف يسيل واذن ريحها سهك ... والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب وما كول التراب غدا ... اقصر فانك ما كول ومشروب

واحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل فى الدنيا قدره وعظم فيها
خطره لانه قد يستقل بعالى همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير . وقال محمد بن
على لا ينبغى للشريف ان يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون بها تائها وقال ابن
السماك لعيسى بن موسى تواضعك فى شرفك اشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان

متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف
وللكبر أسباب فمن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء
وحكى أن قوما مشوا خلف على بن ابى طالب رضى الله عنه فقال ابعدوا عنى خفق
نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال . ومشوا خلف بن مسعود فقال ارجعوا
فانها زلة للتابع وفتنة للمتبوع وروى قيس بن حازم ان رجلا أتى به الى النبى صلى
الله عليه وسلم فاصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما انا ابن امرأة
كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع
الاعجاب وكسرا لاسراف النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك ما روى عن عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس لقد رأيتنى ارعى على
خالات لى من بنى مخزوم فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب فاظل اليوم واى يوم
فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا أمير المؤمنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال
عمر رضى الله عنه ويحك يا ابن عوف انى خلوت فحدثتنى نفسى فقالت أنت امير المؤمنين
فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها . وللاعجاب أسباب فمن أقوى اسبابه كثرة
مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة
وملعبا فاذا وجدوه مقبولا فى العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا
ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه سمع رجلا
يزكى رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها . وقال عمر بن الخطاب رضى الله
عنه المدح ذبح . وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه . وقال بعض الحكماء من رضى أن
يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال
(اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان احدكم مادحا اخاه لا محالة فليقل أحسب ولا ازكى على الله
أحدا) وقيل فيما انزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجبت لمن قيل فيه الخير وليس
فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غره افراط مادحه ... لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
اثنى وقال بلا علم احاط به ... وانت اعلم بالمحصول من ريبك

وهذا امر ينبغى للعاقل ان يضبط نفسه عن أن يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر    حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه فى مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل المدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز . وليعلم ان المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو اعلم بحقيقته ولتكن تهمة المادح اغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا السنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به * وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تكونوا عيابين ولا تكونوا العانين ولا متمادحين ولا متماوتين ) وحكى الاصمعى ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا امدح قال اللهم انت اعلم بى من نفسى وانا اعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفر لى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون . وقال بعض الشعراء

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله    فمادحه يهذى وان كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع واما لتلذذه بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولاى ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفضيح وقد قال بعض الشعراء

وما شرف أن يمدح المرء نفسه    ولكن اعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه    ولا كل اصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا    ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغى للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ومرايا المحاسن

والعيوب على ماينبهونه عليه من مساويه التى صرفه حسن الظن عنها فانهم أمكن نظرا وأسلم فكرا ويجعل ماينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه ❊ وقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ( المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه ) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الينا مساوينا. وقيل لبعض الحكماء أتحب أن تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ماروى عن عمر رضى الله عنه انه قال لابن عباس رضى الله عنهما من ترى أن توليه حمص فقال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بى مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى. وقيل فى منثور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاها. فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من اوكد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة و يثنيها عن البغض . وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة . وقال مصعب بن الزبير التواضع مصايد الشرف وقيل فى منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لاسيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تاهب . وقد قال بعض الحكماء فى تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال . وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها . وقال بعض البلغاء الناس فى الولاية رجلان رجل يجل العمل بفضله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل بعمله لبس به وتجبرا وتكبرا

❊ الفصل الثانى فى حسن الخلق ❊ روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فاكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لا يكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس الا أخبركم بادوإ الداء قالوا بلى قال الخلق الدنئ واللسان البذئ

وقال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى سلامة والسيء الخلق الناس منه فى بلاء وهو من نفسه فى عناء وقال بعض الحكماء عاشر أهلك باحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل وقال بعض الشعراء

اذا لم تتسع أخلاق قوم      تضيق بهم فسحات البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا      فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا احسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار و يزيدان فى الاعمار . وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ماذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المجحفين ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم أحبكم الى أحسنكم اخلاقا الموطئون اكنافا الذين يالفون ويؤلفون وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طلق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفو وأكدر أحيانا لمختبرى      وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لذى الوجهين ان يكون وجيها عند الله تعالى. وقال سعيد بن عروة لان يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبيح المنظر وعجز المخبر أحب الى من ان اكون ذا وجهين وذا لسانين وذا

قولين مختلفين وقال الشاعر · خل النفاق لاهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى الاعدوا أوصديقا

(وقال ابراهيم بن محمد)

وكم من صديق وده بلسانه خؤن بظهر الغيب لايتذمم
يضاحكني عجبا اذا مالقيته ويقذفني منه اذاغبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة وامور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا. فمن أسباب ذلك الولاية التى تحدث فى الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا امامن لؤم طبع واما من ضيق صدر وقد قيل من تاه فى ولايته ذل فى عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة أسف او لقلة صبر حكى حميد الطويل ان عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال انى وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام ومنها الغنى فقد تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الرياشى غضبان يعلم ان المال ساق له مالم يسقه له دين ولاخلق
فمن يكن عن كرام الناس يسالنى فاكرم الناس من كانت له ورق

(وقال بعض الشعراء)

لئن تكن الدنيا افالتك ثروة فاصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج ان أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه ان اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا اقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنست منهم رشدا فاجر عليهم ما كنت تجرى واعلم ان الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد يتكبر وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لولا ان الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ماطاطا رأسه لشيء الفقر والمرض والموت. ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفا على فائت الغنى ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون

كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر وقال أبو تمام الطائى

وأعجب حالات ابن آدم خلقه ... يضل اذا فكرت فى كنهه الفكر

فيفرح بالشيء القليل بقاؤه ... ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالامانى وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء وقال أبو العتاهية

حرك مناك اذا اغتممـ ... ـت فانهن مرواح

(وقال آخر)

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا ... ان المنى رأس أموال المفاليس

ومنها الهموم التى تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع لاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون فى فؤاد المحزون وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة ... فما تقطع العيش الا بهم

اذا تم أمر بدا نقصه ... ترقب زوالا اذا قيل تم

اذا كنت فى نعمة فارعها ... فان المعاصى تزيل النعم

وحام عليها بشكر الاله ... فان الاله سريع النقم

حلاوة دنياك مسمومة ... فما تاكل الشهد الا بسم

فكم قدر دب فى مهلة ... فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التى يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال وقد قال المتنبى

آلة العيش صحة وشباب ... فاذا وليا عن المرء ولى

واذا الشيخ قال اف فامل ... حياة وانما الضعف ملا

واذا لم تجد من الناس كفؤا ... ذات خدر أرادت الموت بعلا

أبدا تسترد ما تهب الدنـ ... ـيا فياليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره فى الجسد كذلك يكون تأثيره فى الاخلاق فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن أثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه • وقال منصور

النميرى

ماكنت أوفى شبابي كنه عزته حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
اصبحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم تشجى لعصته فالتعذر لايقع
ماكان اقصر أيام الشباب وما أبقى حلاوة ذكراه التى تدع
ماواجه الشيب من عين وان رمقت الالها نبوة عنه ومرتدع
قدكدت تقضى على فوت الشباب اسى لولا يعزيك ان العمر منقطع

فهذه سبعة اسباب احدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذى تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن المبغض فيؤل الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

﴿ الفصل الثالث فى الحياء ﴾ اعلم ان الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب فى امثالها * تخبر عن مجهوله مرآته * وكما قال سلم بن عمرو الشاعر

لاتسال المرء عن خلائقه فى وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا ان يكونا الى الشر سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن ابى امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ويشبه ان يكون العى فى معنى الصمت والبيان فى معنى التشدق كما جاء فى الحديث الآخر ان ابعضكم الى الثرثارون المتفيهقون المتشدقون وروى ابو سلمة عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الايمان والايمان فى الجنة والبذاء من الجفاء فى النار وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء حياة الوجه بحيائه كما ان حياة الغرس بمائه وقال بعض البلغاء العلماء ياعجبا كيف لاتستحى من كثرة مالاتستحى وتتقى من طول مالاتتقى وقال صالح بن عبد القدوس

اذاقل ماء الوجه قل حياؤه ولاخير فى وجه اذاقل ماؤه
حياءك فاحفظه عليك وانما يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدر على ما يشاء ويأتي ما يهوى وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن منصور بن ربعي عن ابي منصور البدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن آدم اذا لم تستح فاصنع ما شئت وليس هذا القول اغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضعات الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

واختلف اهل العلم في معنى هذا الخبر فقال ابو بكر بن محمد الشاشي في اصول الفقه معنى هذا الحديث ان من لم يستحي دعاه ترك الحياء الى ان يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحياء يردعه وسمعت من يحكي عن ابي بكر الرازي من اصحاب ابي حنيفة ان المعنى فيه اذا عرضت عليك افعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها فجعل الحياء حكما على أفعاله وكلا القولين حسن والاول اشبه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج المدح لكن قد جاء الحديث بما يضاهي القول الثاني وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت ان تسمعه اذناك فاته وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التاويل الاول في الحديث المتقدم اصح اذ ليس المعنى يلزم ان تكون احاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها أدخل في الحكمة وأبلغ في الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضا واعلم ان الحياء في الانسان قد يكون من ثلاثة أوجه أحدها حياؤه من الله تعالى والثاني حياؤه من الناس والثالث حياؤه من نفسه فاما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره والكف عن زواجره. وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يا رسول الله فكيف نستحي من الله عز وجل حق الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء وهذا

الحديث من أبلغ الوصايا. وقال أبو الحسن الموردى مصنف الكتاب رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ذات ليلة فقلت يارسول الله اوصنى فقال استحى من الله عز وجل حق الحياء ثم قال تغير الناس قلت وكيف ذلك يارسول الله قال كنت أنظر الى الصبى فارى من وجهه البشر والحياء وأنا أنظر اليه اليوم فلا أرى ذلك فى وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها وأذهلنى السرور عن حفظها ووددت لو انى حفظتها فلم يبدأ بشئ صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ماسلبه الصبى من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبى لان ما ياتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع انذارها وقطع اعذارها وواصل تاديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من أوامره أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق. وقد روى ان علقمة بن علاثة قال يارسول الله عظنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم استحى من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم قلة الحياء كفر يعنى من الله لما فيه من مخالفة أوامره. وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشئ تبدد مافيه وتفرق

وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من تقوى الله اتقاء الناس. وروى ان حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لاخير فيمن لا يستحى من الناس وقال بشار بن برد

ولقد اصرف الفؤاد عن الشئ حياء وحبه فى السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى ذاكرا فى غد حديث الاغادى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من القى جلباب الحياء فلا غيبة له يعنى والله أعلم لقلة مروءته وظهور شهوته وروى الحسن عن أبى هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم ان مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه وجليسه وقال بعض الشعراء

ورب قبيحة ماحال بيني وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجها وقاحا تقلب فى الامور كما يشاء

وقال آخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات وقال بعض الحكماء ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك وقال بعض الادباء من عمل فى السر عملا يستحى منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر. ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال انى دخلت البارحة فى الاربعين وأنا أستحى من سنى . وقال بعض الشعراء

فسرى كاعلانى وتلك خليقتى وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتقلت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا وقال بعض الشعراء

وانى ليثنينى عن الجهل والخنا وعن شتم ذى القربى خلائق أربع
حياء واسلام وتقوى واننى كريم ومثلى من يضر وينفع

وان أخل باحد وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله وقد قال الرياشي يقال ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون أخرى قد سنحت لها جعلتها للتى اخفيت عنوانا
وانى لارى من لاحياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا

﴿الفصل الرابع فى الحلم والغضب﴾ روى محمد بن حارث الهلالى ان جبريل نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انى أتيتك بمكارم الاخلاق فى الدنيا والآخرة (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وروى سفيان بن عيينة ان النبى صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية قال يا جبريل ماهذا قال لا أدرى حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل وقال يا محمد ان ربك يأمرك ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك. وروى هشام عن الحسن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أيعجز

احدكم ان يكون كابى ضمضم كان اذا خرج من منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الحليم الحى ويبغض الفاحش البذى وقال عليه الصلاة والسلام من حلم ساد ومن تفهم ازداد وقال بعض الادباء من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم وقال بعض البلغاء ما ذب عن الاعراض كالصفح والاعراض وقال بعض الشعراء

أحب مكارم الاخلاق جهدى ... وأكره ان أعيب وان اعابا
واصفح عن سباب الناس حلما ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الاخلاق وأحقها بذوى الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه اول عوض الحليم عن حلمه ان الناس أنصاره وحد الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة احدها الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة وقد قيل فى منثور الحكم من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال وقال أبو الدرداء رضى الله عنه لرجل اسمعه كلاما ياهذا لا تغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافىء من عصى الله فينا باكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه وشتم رجل الشعبى فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لى وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ماتركت لذى غيظ شفاء — وقسم معاوية رضى الله عنه قطفا فاعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف أن يضرب بها رأس معاوية فاتاه فاخبره فقال له معاوية أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ والثانى من أسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه وقال بعض الحكماء ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة. وقال بعض البلغاء أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر والثالث من أسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس ان تحمل المكاره كما تحمل المكارم . وقد قيل ان الله تعالى

سمي يحيي عليه السلام سيد الحلمه وقد قال الشاعر

لا يبلغ المجد أقوام وان كرموا حتى يذلوا وان عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

والرابع من أسبابه الاستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكى عن مصعب بن الزبير انه لما ولى العراق جلس يوما لعطاء الجند وأمر مناديه فنادى أين عمرو بن جرموز وهو الذى قتل اباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد تباعد فى الارض فقال اويظن الجاهل انى اقيده بأبى عبد الله فليظهر آمنا ليأخذ عطاءه موفرا فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعماء فى شعره

او كلما طن الذباب طردته ان الذباب اذن على كريم

واكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله مامنعه من جوابى الاهوانى عليه وفى مثله يقول الشاعر

نجا بك لؤمك منجى الذباب حمته مقاذيره ان ينالا

واسمع رجل بن هبيرة كلاما فاعرض عنه فقال له الرجل اياك اعنى فقال له وعنك اعرض وفى مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه عرض عززت به وانت ذليل

﴿وقال عمرو بن على﴾

اذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من اجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أنى عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من أسبابه الاستحياء من جراء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال السفيه خير من التحلى بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته. وقال بعض الادباء ما افحش حليم ولا اوحش كريم. وقال لقيط بن زرارة

وقل لبنى سعد فمالى ومالكم ترقون منى ما استطعت واعتق
اغركموا انى باحسن شيمة بصير وانى بالفواحش اخرق
وان تك قد فاحشتنى فقهرتنى هنيئا مريئا انت بالفحش احذق

والسادس من اسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينقصانك و يثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة اعذر فى تنقصى وثلبى فكان هذا تفضلا منه وتألفا . وقد حكى عن الاحنف بن قيس انه قال ماعادانى أحد قط الا اخذت فى أمره باحدى ثلاث خصال ان كان اعلى منى عرفت له قدره وان كان دونى رفعت قدرى عنه وان كان نظيرى تفضلت عليه فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

سالزم نفسى الصفح عن كل مذنب　　وان كثرت منه الى الجرائم

فما الناس الا واحد من ثلاثة　　شريف ومشروف ومثل مقاوم

فاما الذى فوقى فاعرف قدره　　واتبع فيه الحق والحق لازم

واما الذى دونى فاحلم دائبا　　اصون به عرضى وان لام لائم

واما الذى مثلى فان زل أوهفا　　تفضلت ان الفضل بالفخر حاكم

والسابع من اسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكى ان رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت لسمعت عشرا فقال له ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة وحكى ان على بن ابى طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهرى من احمق الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجهال . وقال الشعبى ماادركت أمى فابرها ولكن لا أسب احدا فيسبها . وقال بعض الحكماء فى إعراضك صون اعراضك . وقال بعض الشعراء

وفى الحلم ردع للسفيه عن الاذى　　وفى الخرق اغراء فلاتك اخرقا

فتندم اذ لاينفعنك ندامة　　كما ندم المغبون لما تفرقا

﴿وقال آخر﴾

قل مابدالك من زور ومن كذب　　حلمى أصم واذنى غير صماء

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأى واقتضاه الحزم . وقد قيل فى منثور الحكم الحلم حجاب الآفات وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذی هفوة خرقا    ليس الحليم كمن فی أمره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد وقد قيل فی منثور الحكم أكرم الشيم ارعاها للذمم. وقال الشاعر

ان الوفاء على الكريم فريضة    واللؤم مقرون بذی الاخلاف

وترى الكريم لمن يعاشر منصفا    وترى اللئيم مجانب الانصاف

والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء وقد قيل فی منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده . وقال بعض الادباء غضب الجاهل فی قوله وغضب العاقل فی فعله. وقال بعض الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جوابا وأوجعته عقابا. وقال اياس بن قتادة

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا    ونشتم بالافعال لا بالتكلم

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

وللكف عن شتم اللئيم تكرما    اضرله من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة اسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض وليس اذا كان بعض اسبابه مفضولا ما يقضی ان تكون نتيجته من الحلم مذمومة وانما الاولى بالانسان ان يدعوه للحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلا وان عرا عن احد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لاننا قد ذكرنا فی حد الحلم انه ضبط النفس عند هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية. وقد قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون الا فی ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا فی العسرة والشجاع الا فی الحرب والحليم الا فی الغضب وقال الشاعر

ليست الاحلام فی حال الرضى    انما الاحلام فی حال الغضب

﴿ وقال آخر ﴾

من يدعی الحلم أغضبه لتعرفه    لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وانشد النابغة الجعدی بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير فی حلم اذا لم يكن له    بوادر تحمی صفوه ان يكدرا

ولا خير فی جهل اذا لم يكن له    حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب فى الاشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع والاخذ بالنار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقى فضائله فى النفوس موضع ولا لوفور حلمه فى القلوب موقع وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة وقال بعض الحكماء العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم . وقال عمرو بن العاص أكرموا سفهاءكم فانهم يقوفكم العار والشنار . وقال مصعب بن الزبير ماقل سفهاء قوم الا ذلوا وقال ابو تمام الطائى

والحرب تركب رأسها فى مشهد عدل السفيه به بالف حليم

وليس هذا القول اغراء بتحكم الغضب والانقياد اليه عند حدوث ما يغضب فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه واطفا ثائرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره ولا يعدم مسىء مكافئا كما لن يعدم محسن مجازيا والعرب تقول دخل بيتا ما خرج منه أى ان خرج منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر . وأنشد ابن دريد عن ابى حاتم

اذا أمن الجهال جهلك مرة فعرضك للجهال غنم من الغنم
فعم عليه الحلم والجهل والقه بمنزلة بين العداوة والسلم
اذا انت جاريت السفيه كما جرى فانت سفيه مثله غير ذى حلم
ولا تغضبن عرض السفيه وداره بحلم فان اعيا عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة ويا خذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من أحكم أبيات وجدتها فى تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من مقارفته ولا سبيل الى اطراحه ومتاركته ما لخوف شره أو للزوم امره فاما من أمكن اطراحه ولم يضر ابعاده فالهوان به أولى والاعراض عنه أصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريكك الغضب فضائله وامن بكف نفسه عن

الانقياد له رذائله وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خبرة اسبابه ودواعيه حتى يصير بليد الرأى مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العذاء قليل الحيلة مع ماينا له من أسر ذلك فى نفسه وجسده حتى يصير اضر عليه مما غضب له. وقد قال بعض الحكماء من كثر شططه كثر غلطه. وروى ان سلمان قال لعلى رضى الله عنه ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل قال ان لا تغضب. وقال بعض السلف اقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل اذا غضب وقال بعض البلغاء من رد غضبه هد من أغضبه وقال بعض الادباء ماهيج جاشك كغيظ أجاشك وقال رجل لبعض الحكماء عظنى قال لا تغضب فينبغى لذى اللب السوى والحزم القوى أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل عوادى شرته بحزمه فيردها ليحظى بأجلاء الحيرة ويسعد بحميد العاقبة وقال بعض الادباء فى اغضائك راحة أعضائك وسبب الغضب هجوم ماتكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ماتكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والاسقام لكمونه ولذلك أفضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب

واعلم ان لتسكين الغضب اذا هجم أسبابا يستعان بها على الحلم * منها أن يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه الى الطاعة فيرجع الى أدبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب قال الله تعالى ( واذكر ربك اذا نسيت ) قال عكرمة يعنى اذا غضبت وقال الله تعالى ( واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ) ومعنى قوله ينزغنك أى يغضبنك ( فاستعذ بالله انه هو السميع العليم ) يعنى انه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب وذكر ان فى التوراة مكتوبا يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن أمحق . وحكى أن بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزيره وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب انما أنت بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة

الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهرون الرشيد يا أمير المؤمنين اسالك بالذى أنت بين يديه اذل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى وروى أن رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع فى القبور واعتبر بالنشور وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب التى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضى الله عنه من أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ومنها أن ينتقل عن الحالة التى هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المامون اذا غضب أو شتم وكانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم. ومنها أن يتذكر ما يؤل اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفك دما وأخرى منك تحقن دما وان نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس فى غضبك قولك ان تخطئ ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يجف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما وقال بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم وقال بعض الادباء اياك وعزة الغضب فانها تفضى الى ذل العذر . وقال بعض الشعراء

واذا ما اعترتك فى الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها أن يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة فى الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ينادى مناد يوم القيامة من له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا ( فمن عفا واصلح فاجره على الله ) وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (الخير ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا ) وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال عمر أردت ان يستفزنى الشيطان لعزة السلطان فانال منك اليوم ما تناله منى غدا انصرف رحمك الله ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتنفير الناس

عنه و بعدهم منه فيكف عن متابعة الغضب فيرغب فى التالف وجميل الثناء. وروى ابن أبى ليلى عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد أحد بعفو الاعزا فاعفوا يعزكم الله وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرام ازالة النعم وقال المامون لابراهيم بن المهدى انى شاورت فى أمرك فاشاروا على بقتلك الا انى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال ياأمير المؤمنين ان المشير أشار بما جرت به العادة فى السياسة الا انك أبيت ان تطلب النصر الا من حيث ماعودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشا يقول

البر بى منك وطا العذر عندك لى ... فيما فعلت فلم تعدل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا مننت به ... انى لفى اللؤم أحظى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت ... به فلا عدمتك من عاف ومنتقم

﴿ الفصل الخامس فى الصدق والكذب ﴾ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ( ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ) وقال تعالى ( انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ) وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال للحسن بن على رضى الله عنهما ( دع مايريبك الى مالا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمانينة ) وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ( رحم الله امرأ أصلح من لسانه واقصر من عنانه والزم طريق الحق مقوله ولم يعود الخطل مفصله ) وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبى صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا قال نعم قيل أفيكون بخيلا قال نعم قيل أفيكون كذابا قال لا وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ( ولا تلبسوا الحق بالباطل ) أى لاتخلطوا الصدق بالكذب . وقيل فى منثور الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك وقال بعض الحكماء الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة وقال بعض البلغاء الصادق مصون جليل والكاذب مهان ذليل وقال بعض الادباء لاسيف كالحق ولا عون كالصدق وقال بعض الشعراء

وماشئ اذا فكرت فيه ... باذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذى لاخير فيه ... وابعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤل الى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هو الاخبار عن الشئ على ماهو عليه والكذب هو الاخبار عن الشئ بخلاف ماهو عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعى الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصدعنه الشرع ولذلك جاز ان تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز ان تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس فى الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعى فدواعى الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطاة وقع فى النفس صدقه لان الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس فى الدواعى النافعة ممكن ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذى لا يمكن مواطاة مثلهم على نقل خبر يكون كذابا لان الدواعى اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس فى جارى العادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ماسنح به الخاطر من دواعيهما

أما دواعى الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لاسيما اذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان مستقبحا وليس مااستحسن من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب فى العقل كالذى انشدنيه الازدى لبعض الشعراء

توهمه فكرى فاصبح خده ... وفيه مكان الوهم من فكرتى أثر
وصافحه كفى فآلم كفه ... فمن لمس كفى فى أنامله عقر
ومر بقلبى خاطرا فجرحته ... ولم أر شيئا قط يجرحه الفكر

وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطى  اليها لم تجنبت الجليلا
فقلت لها تحلت فصار خطى  مساعدة لكاتبه نحيلا

لانه خرج مخرج المبالغة فى التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وان شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب فلذلك استحسن فى الصنعة ولم يستقبح فى العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه • ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز ان يرد بارخاص ما حظره العقل بل قد جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جر نفعا أو دفع ضررا والعقل انما حظر ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا . ومنها المروءة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى من فعل ما كان مستقبحا • ومنها حب الثناء والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم . وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق أقوى معين والصدق افضل قرين . وقال بعض الشعراء

عود لسانك قول الصدق تحظ به  ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضى ماسننت له  فى الخير والشر فانظر كيف ترتاد

واما دواعى الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر فيرى ان الكذب أسلم وأغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشغافا للطمع وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل واقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تحروا الصدق وان رأيتم ان فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رأيتم ان فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لان يضعنى الصدق وقلما يضع أحب الى من ان يرفعنى الكذب وقلما يفعل • وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان أمنته . وقال الجاحظ الصدق والوفاء توأمان والصبر والحلم توأمان فبهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا واضدادهن سبب كل فرقة واصل كل فساد • ومنها ان يؤثر ان يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا

يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلى الكذب الذى ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة وهذا النوع اسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة • وقد قال الجاحظ لم يكذب أحد قط الا لصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن المقفع لا تتهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق. ومنها ان يقصد بالكذب التشفى من عدوه فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى ان معرة الكذب غنم وان ارسالها فى العدو سهم وسم وهذا اسوأ حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه ومنها ان تكون دواعى الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان. وقد قالت الحكماء من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه • وقيل فى منثور الحكم لا يلزم الكذاب شيئا الا غلب عليه

واعلم ان للكذاب قبل خبرته امارات دالة عليه فمنها انك اذا لقنته الحديث تلقنه و... يكن بين مالقنته وبين ما أورده فرق عنده. ومنها انك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه • ومنها انك اذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال على بن ابى طالب كرم الله وجهه الكذاب كالسراب . ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه امور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما فى الطبع من اثارتها ولذلك قالت الحكماء. العينان انم من اللسان • وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا • وقال بعض الشعراء

تريك اعينهم مافى صدورهم　　ان العيون يؤدى سرها النظر

واذا تسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت الى اكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجتمع بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب عليه . وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البليـ　　ـة بعض مايحكى عليه
فاذا سمعت بكذبة　　من غيره نسبت اليه

ثم انه ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد له حديث مصدق ولا كذب مستنكر . وقد قال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد يصدق فى شىء وان كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ اذا كان حاذقا

وقد وردت السنة بارخاص الكذب فى الحرب واصلاح ذات البين على وجه التورية والتاويل دون التصريح به فان السنة لا يجوز ان ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وانما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال من ماء فورى عن الاخبار بنسبه بامر محتمل فظن السائل انه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من الماء الذى يخلق منه الانسان فبلغ ما أحب من اخفاء نفسه وصدق فى خبره وكالذى حكى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه انه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون ابا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا بكر من هذا فقال هاد يهدينى السبيل فظنوا انه يعنى هداية الطريق وهو انما يريد هداية سبيل الخير فصدق فى قوله وورى عن مراده . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان فى المعاريض ما يكفى ان يعف الرجل عن الكذب وقال بعض أهل التاويل فى قوله تعالى لا تؤاخذنى بما نسيت انه لم ينس ولكنه معاريض الكلام وقال ابن سيرين الكلام اوسع من ان يصرح فيه بالكذب واعلم ان من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمعرة ويزيد عليه فى الاذى والمضرة وهى الغيبة والنميمة والسعاية فاما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه يعنى انه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا وروى ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فاخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما احل لهما وافطرتا على ما حرم عليهما وروت اسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم أخيه

بظهر الغيب كان حقا على الله عز وجل ان يحرم لحمه على النار وقال عدى بن حاتم الغيبة رعى اللئام وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول الغيبة فاكهة النساء وقال رجل لابن سيرين رحمه الله انى اغتبتك فاجعلنى فى حل فقال ما أحب ان احل لك ما حرم الله عليك وقال ابن السماك لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك وقال الشاعر

لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا　　فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا　　ولا تعب احدا منهم بما فيكا

وربما عذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب ويجانب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه اولى وجاهر من اسر واخفى وربما دعا المغتاب ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفده ذلك الا فساد أخلاقه من غير ان يكون فيه صلاح لغيره وقد قيل لانوشروان ما الذى لا خير فيه قال ما ضرنى ولم ينفع غيرى أو ضر غيرى ولم ينفعنى فلا اعلم فيه خيرا وقيل فى منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال سئل رسول الله صلى الله علبه وسلم عن الغيبة فقال هى ان تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته وقال عبد الرحمن بن زيد فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم) انه استهزاء المسلم بمن اعلن بفسقه ودخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم مستفتية فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ما اقصرها فقال مهلا اياك والغيبة فقالت يا رسول الله انما قلت ما فيها قال اجل ولولا ذلك لكان بهتانا . وسئل بعض الادباء عن صفة اللئيم فقال اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب فاما الخبر فمحمول على الانكار لافعال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهى عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبة المساتر واما النميمة فهى ان تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تؤل الى تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحاببين وروى شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الا اخبركم بشراركم قالوا

بلى يارسول الله قال من شراركم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب
وروى محمد بن عمر وعن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل
منان الشغار المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة والقتات النمام وقيل النمام الذي يكون
مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات هو الذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون فينم
حديثهم والمنان هو الذي يصنع الخير ويمن به وقيل في منثور الحكم النميمة سيف
قاتل وقال بعض الادباء لم يعش ماش شر من واش فاما السعاية فهي شر الثلاثة لانها تجمع
الى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس والاموال والقدح في المنازل
والاحوال وروى بن قتيبة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا
قلاع الديوث هو الذي يجمع بين الرجال والنساء سمي بذلك لانه يديث بينهم والقلاع
هو الساعي الذي يقع في الناس عند الامراء سمي بذلك لانه يأتي الرجل المتمكن عند
الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه. وقال بعض الحكماء الساعي بين منزلتين قبيحتين
اما ان يكون صدق فقد خان الامانة واما ان يكون قد كذب فخالف المروءة وقال بعض
الحكماء الصدق يزين كل احد الا السعاة فان الساعي أذم وآثم ما يكون اذا صدق وقال
بعض البلغاء النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب
سبلهما واجتنب أهلهما ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه نحن نرى قبول
السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعي فانه ان كان في سعايته
صادقا كان في صدقه آثما اذ لم يحفظ الحرمة ويستر العورة وقال الاسكندر لرجل
سعى اليه برجل اتحب ان نقبل منك ماتقول فيه على ان نقبل منه مايقول فيك قال
لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر. وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى على نبينا
وعليه السلام (ان في بلدك ساعيا ولست اخبرك وهو في أرضك فقال يارب دلني عليه
حتى اخرجه فقال ياموسى اكره النميمة وأنم )

* الفصل السادس في الحسد والمنافسة * اعلم ان الحسد خلق ذميم مع اضراره
بالبدن وافساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى (ومن شر حاسد
اذا حسد )وناهيك بحال ذلك شرا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال دب اليكم

داء الامم قبلكم البغضاء والحسد هی الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذی نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا انبئكم بامر اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم فاخبر صلی الله علیه وسلم بحال الحسد وان التحابب ينفيه وان السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذن نافيا للحسد وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى (ادفع بالتی هی احسن فاذا الذی بينك وبينه عداوة كانه ولی حميم) قال مجاهد معناه ادفع بالسلام اساءة المسیء. وقال الشاعر

قد يلبث الناس حينا ليس بينهم ودفيز رعه التسليم واللطف

وقال بعض السلف الحسد أول ذنب عصی الله به فی السماء يعنی حسد ابليس لآدم عليه السلام واول ذنب عصی الله به فی الارض يعنی حسد ابن آدم لاخيه حتى قتله. وقال بعض الحكماء من رضی بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود وقال بعض الادباء ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم فاخذه بعض الشعراء فقال

ان الحسود الظلوم فی كرب يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس على دائم نفس يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا انه خلق دنیء يتوجه نحو الاكفاء والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية فی عدو ولا اضرار بمحسود. وقد قال معاوية رضی الله عنه ليس فی خصال الشر اعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل ان يصل الى المحسود وقال بعض الحكماء يكفيك من الحاسد انه يغتم فی وقت سرورك وقيل فی منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه وقال الاصمعی قلت لاعرابی ما اطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت. وقال رجل لشريح القاضی انی لاحسدك على ما أری من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرنی وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله

اصبر على كيد الحسو د فان صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تاكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسة فى الخير هى الحسد وليس الامر على ماظنوا الان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الافاضل فضلهم من غير ان يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذن فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتداء باخيار الافاضل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر نافس على الخيرات أهل العلا فانما الدنيا احاديث

كل امرئ فى شانه كادح فوارث منهم وموروث

واعلم ان دواعى الحسد ثلاثة . أحدها بغض المحسود فياسى عليه بفضيلة تظهر أومنقبة تشكر فيثير حسدا قدخامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وان كان أضرها لانه ليس يبغض كل الناس . والثانى ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف عنه وهذا أوسطها لانه لا يحسد الاكفاء من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا والثالث أن يكون فى الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل فى قضائه ويحسد على مامنح من عطائه وان كانت نعم الله عز وجل عنده اكثر ومنحه عليه أظهر وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بورا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانة كان كمدا وسقاما وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقى السم فان سرى سمه زال عنه همه واعلم انه بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذى نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما كانت نعمة الله على أحد الا وجد لها حاسدا فلو كان الرجل اقوم من القدح لما عدم غامزا

وقد قال الشاعر

ان يحسدونى فانى غير لائمهم ... قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم مابى ومابهم ... ومات اكثرنا غيظا بما يجد

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال ابو تمام الطائى

واذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

لولا التخوف للعواقب لم يزل ... للحاسد النعمى على المحسود

فاما ما يستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا لينتفى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعدوانه فامور هى له حسم ان صادفها عزم فمنها اتباع الدين فى اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل فى آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب ويحبب منها ما أتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلى خلقه غير أنه اذا عانا تهذيب نفسه تظاهر بالخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق وقال أبو تمام الطائى

فلم أجد الاخلاق الا تخلقا ... ولم أجد الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذى يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجنه مساويه فيذلل نفسه أنفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها وتجيب الى اصلاحها وهذا انما يصح لذى النفس الابية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد وقد قال الشاعر

أبى له نفسان نفس زكية ... ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى أثره ويعلم أن مكافته فى نفسه ابلغ ومن الحسد ابعد فيستعمل الحزم فى دفع ما كده واكمده ليكون اطيب نفسا واهنا عيشا . وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد وقد قال الشاعر

بصير باعقاب الامور كأنما ... يرى بصواب الرأى ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة او على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا اجدى نفعا وأخلص ودا

وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

داوى جوى بجوى وليس بحازم　　من يستكف النار بالحلفاء

(وقال المؤمل بن أميل)

لا تحسبوني غنيا من مودتكم　　اني اليكم وان أيسرت مفتقر

ومنها أن يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا أن يعارضه في أمره فيرد محروما مسلوبا . وقد قال اردشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه وقال محمود الوراق

قدر الله كائن　　حين يقضي وروده

قد مضى فيك علمه　　وانتهى مايريده

واخو الحزم حزمه　　ليس مما يزيده

فاردما يكون ان　　لم يكن ماتريده

فان أظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا فان من استنزل نفسه عن مذمة وصرفها عن لائمة فهو اظهر حزما وأقوى عزما ممن كفته النفس جهادها واعطته قيادها ولذلك قال على بن أبي طالب رضي الله عنه خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشهوة عن مراشده واضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء باربع مذام احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه . وقد قيل في منثور الحكم الحسود لا يسود . والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة مأثورا وبالمقت مزجورا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه . والرابعة اسخاط الله تعالى في معارضته واجتناء الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه من الناس أهلا . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاظ على

من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده واذا بلى الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم واعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وابعد عن ملابسته وادنائه لعضل دائه واعواز دوائه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها . وقال بعض من ربطبعه فلا تانس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام وقال عبد الحميد أسد تقاربه خير من حسود تراقبه . وقال محمود الوراق

اعطيت كل الناس من نفسى الرضا    الا الحسود فانه أعيانى
ماإن لى ذنبا اليه علمته    الا تظاهر نعمة الرحمن
وابى فما يرضيه الا ذلتى    وذهاب اموالى وقطع لسانى

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يسلم أحد منهن الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ ﴿فصل﴾ واما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان أحدهما ماتكون المواضعة فى فروعه والعقل موجب لاصوله والثانى ماتكون المواضعة فى فروعه واصوله وذلك متضح فى الفصول التى نذكرها اذا سبرت وهى ثمانية

(الفصل الاول فى الكلام والصمت) اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل ان يحترز من زلله بالامساك عنه أو بالاقلال منه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ أنت سالم ماسكت فاذا تكلمت فعليك أولك . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه اللسان معيار اطاشه الجهل وارجحه العقل . وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعد حكيما جاهلا كنت اوعالما . وقال بعض الادباء سعد من لسانه صموت وكلامه قوت . وقال بعض العلماء من اعوز ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته اولحجته ولا يفكر الا فى عاقبته اوفى آخرته وقال بعض البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤونة الاعتذار . وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه اوحكمة تنشرها او نعمة تذكرها . وقال الشاعر

رأيت العز فى ادب وعقل وفى الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا ان تراه له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا بعد ان يستوفيها وهى اربعة. فالشرط الاول ان يكون الكلام لداع يدعو اليه اما فى اجتلاب نفع أو دفع ضرر. والشرط الثانى ان ياتى به فى موضعه ويتوخى به اصابة فرصته. والشرط الثالث ان يقتصر منه على قدر حاجته. والشرط الرابع ان يتخير اللفظ الذى يتكلم به فهذه اربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد وهن ليلة باقافضيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبىء عن لزومه. فاما الشرط الاول وهو الداعى الى الكلام فلان مالا داعى له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه فى الكلام اذا عن ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا كالذى حكى ابن عائشة ان شابا كان يجالس الاحنف و يطيل الصمت فاعجب ذلك الاحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن أخى فقال يا عم ارأيت لو ان رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شىء فقال يا ابن اخى ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشنى

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته اونقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فلم يبق الاصورة اللحم والدم

وكالذى حكى عن ابى يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه فيطيل الصمت فقال له ابو يوسف الا تسأل قال بلى متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى نصف الليل قال فتبسم ابو يوسف رحمه الله وتمثل ببيتى الخطفى جد جرير

عجبت لازراء العيي بنفسه وصمت الذى قد كان بالقول اعلما
وفى الصمت ستر للعيي وانما صحيفة لب المرء ان يتكلما

ومما اطرفك به عنى انى كنت يوما فى مجلسى بالبصرة وانا مقبل على تدريس أصحابى اذ دخل على رجل مسن قد ناهز الثمانين او جاوزها فقال لى قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت اسال وعافاك الله وظننته يسال عن حادث نزل به فقال اخبرنى عن نجم ابليس

ونجم آدم ماهو فان هذين لعظم شانهما لايسال عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله و بدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ماظهر من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت ياهذا ان المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاساله فحينئذ اقبل على وقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد ايام عاد وقال ماوجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد هذين فانظر هؤلاء كيف ابانوا بالكلام عن جهلهم واعربوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا اراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ماعرض له وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه. وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه وقال بعض البلغاء احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلاشىء اولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب و يسرع الى الجواب وقال ابو تمام الطائى

ومما كانت الحكماء قالت     لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول اذا جالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلماء فانصت لهم فان فى انصاتك للجهال زيادة فى الحلم وفى انصاتك للعلماء زيادة فى العلم واما الشرط الثانى فهو أن ياتى بالكلام فى موضعه لان الكلام فى غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بانه هذيان وهجر فان قدم مايقتضى التاخير كان عجلة وخرقا وان اخر مايقتضى التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفى كل زمان عملا وقد قال الشاعر

لاتضع الحديث على مواضعه     وكلامها من بعدها نزور

واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية ومالم يكن من الكلام محصورا كان اما حصرا ان قصر او هذرا ان كثر وروى ان اعرابيا تكلم عند رسول

الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاي واسناني قال فان الله عز وجل يكره الانبعاق في الكلام فنضر الله وجه امرئ اوجز في الكلام فاقتصر على حاجته وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثرت آثامه وقال ابن مسعود أنذر كم فضول المنطق وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك وما يسخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية ومن أوحش اخوانه تبرأ من الحرية وقال بعض الشعراء

وزن الكلام اذا نطقت فانما يبدي عيوب ذوي العيوب المنطق

وللمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر اشنع وربما كان في الغالب أخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف المهجة وقد قال الشاعر

رأيت اللسان على اهله اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال بعض الادباء يارب ألسنة كالسيوف تقطع اعناق اصحابها وماينقص من هيئات الرجال يزيد في بهائها والبابها وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يتعوده زلل فهو البيان والسحر الحلال وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كلا ان من تكلم فاحسن قدر على ان يسكت فيحسن وليس من سكت فاحسن قدر على أن يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا أخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا املاه وانشد بعضهم في خطباء اياد

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يابني اذا اقللت من الكلام اكثرت من الصواب فقال

يا أبت فان انا اكثرت واكثرت يعنى كلاما وصوابا فقال يا بنى ما رأيت موعوظا احق بان يكون واعظا منك وانشدت لابى الفتح البستى

تكلم وسدد ما استطعت فانما　　كلامك حى والسكوت جماد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله　　فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن اوية مافيك عيب الا كثرة الكلام فقال افتسمعون صوابا أوخطا قالوا الا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير. وقال أبو عثمان الجاحظ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق أبو عثمان لان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن اعجاب به لولاه لاقصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل فى الكلام كثير الزلل دائم العثار. وقال بعض الحكماء من اعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازى ضرره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه السآمة والملل وليس فى مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أبغضكم الى المتفيهق المكثار والملح المهذار وسال رجل حكيما فقال متى اتكلم قال اذا اشتهيت الصمت فقال متى اصمت قال اذا اشتهيت الكلام وقال جعفر بن يحيي اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا وان كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا وقيل فى منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام وقال بعض الادباء من اطال صمته اجتاب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره وقال بعض البلغاء عى تسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم وقال بعض الفصحاء فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء اطلق. وقال بعض الشعراء

ان الكلام يغر النوم جلوته　　حتى يلج به عى واكثار

واما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذى يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم ان يكون بتهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لعمه العباس يعجبنى جمالك قال

وماجمال الرجل يارسول الله قال لسانه وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل كان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان وقال بعض الادباء كلام المريد وافد ادبه وقال بعض البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله وقال بعض الشعراء

وان لسان المرء مالم تكن له    حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا يأتى بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معان مفردة ولا لالفاظها غاية وانما البلاغة ان تكون بالمعانى الصحيحة مستودعة فى الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعانى هى البلاغة وقد قيل لليونانى ما البلاغة قال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام وقيل ذلك للرومى فقال حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الاطالة وقيل للهندى فقال معرفة الصل من الوصل وقيل للعربى فقال ماحسن ايجازه وقل مجازه وقيل للبدوى فقال مادون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل وقيل للحضرى فقال ما كثر اعجازه وتناسبت صدوره واعجازه. وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر . وسأل الحجاج بن القرية عن الايجاز قال ان تقول فلا تبطىء وان تصيب فلا تخطىء وقال الشاعر

خير الكلام قليل    على كثير دليل
والعى معنى قصير    يحويه لفظ طويل
وفى الكلام فضول    وفيه قال وقيل

وأما صحة المعانى فتكون من ثلاثة اوجه. احدها ايضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة . والثانى استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو فيها والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين احدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لان المعانى تصير متشاكلة. والثانى مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس لا مقابلة الا احد هذين الوجهين. الموافقة فى الائتلاف والمضادة

مع الاختلاف فامافصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة أوجه. احدها مجانبة الغريب الوحشي حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع. والثاني تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي ولا ينبو عن فهمه عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان اما انا فلم ارقوما امثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك انهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا. والثالث ان يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة. اما المطابقة فهي ان تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها. وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد واذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من أنت اقل عيبا منه وأزرى عليك من أنت فوقه.

واما المناسبة فهي ان يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ اما لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ماسواها وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك وأما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة اعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن ان يكون في عداد البلغاء

واعلم ان للكلام آدابا ان اغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوى ادبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه فمن آدابه ان لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجاوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب. يروى انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سال رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يارسول الله لقد علم انى خير مما وصف ولكن حسدني فذمه عمرو وقال والله يارسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى فقلت

احسن ماعلمت وسخطت فی الاخری فقلت أقبح ماعلمت فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم ان من البیان لسحرا علی ان السلامة من الکذب فی المدح و الذم متعذرة لاسیما اذا مدح تقربا وذم تحنقا. وحکی عن الاحنف بن قیس انه قال سهرت لیلتی افکر فی کلمة ارضی بها سلطانی و لا اسخط بها ربی فما وجدتها وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل لیدخل علی السلطان ومعه دینه فیخرج وما معه دینه قیل و کیف ذلك قال یرضیه بما یسخط الله عز وجل وسمع ابن الرومی رجلا یصف رجلا ویبالغ فی مدحه فانشا یقول

اذا ماوصفت امرأ لامریء    فلا تغل فی وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنو    ن فیه الی الامد الابعد
فیضال من حیث عظمته    لفضل المغیب علی المشهد

ومن آدابه ان لا تبعثه الرغبة والرهبة علی الاسترسال فی وعد أو وعید یعجز عنهما ولا یقدر علی الوفاء بهما فان من اطلق بهما لسانه وأرسل فیهما عنانه ولم یستثقل من القول مایستثقله من العمل صار وعده نکثا ووعیده عجزا. وحکی ان سلیمان بن داود علیهما السلام مر بعصفور یدور حول عصفورة فقال لاصحابه هل تدرون مایقول لها قالوا لا یانبی الله قال انه یخطبها لنفسه ویقول لها زوجینی نفسك اسکنك أی غرف دمشق شئت وقال سلیمان کذب العصفور فان غرف دمشق مبنیة بالصخور لا یقدر ان یسکنها هناك ولکن کل خاطب کاذب ومن آدابه انه ان قال قولا حققه بفعله واذا تکلم بکلام صدقه بعمله فان ارسال القول اختیار والعمل به اضطرار ولان یفعل مالم یقل أجمل من ان یقول مالم یفعل وقال بعض الحکماء احسن الکلام مالا یحتاج فیه الی الکلام أی یکتفی بالفعل من القول وقال محمود الوراق

القول ماصدقه الفعل    والفعل ماوکده العقل
لا یثبت القول اذا لم یکن    یقله من تحته الاصل

ومن آدابه ان یراعی مخارج کلامه بحسب مقاصده واغراضه فان کان ترغیبا قرنه باللین واللطف وان کان ترهیبا خلطه بالخشونة والعنف فان لین اللفظ فی الترهیب وخشونته فی الترغیب خروج عن موضعهما وتعطیل للمقصود بهما فیصیر الکلام لغوا والغرض المقصود لهوا وقد قال أبو الاسود الدؤلی لابنه یابنی ان کنت فی قوم

فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك ومن آدابه ان لا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة وقد حكى ان الحجاج قال لاعرابى أخطيب انا قال نعم لولا انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد ومن آدابه ان يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون وقد قال محمد بن على فى قوله تعالى (واذا مروا باللغو مروا كراما) قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغى الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى افكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه أحد النكرين كما ان سماعه احد الباعثين وأنشدنى أبو الحسن بن الحارث الهاشمى

تحر من الطرق اوساطها وعد عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبح الكلام كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره فى وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف والروية مستقيما كالذى رواه الازدى عن الصولى لبعض المتكلفين من الشعراء

انى شيخ كبير كافر بالله سيرى
أنت ربى والهى رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أى لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمى الكافر بالله كافرا لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم عليها أن تسير وقوله أنت ربى يعنى ربى ولدك من التربية والهى رازق الطفل الصغير كما انه رازق الولد الكبير فانظر الا هذا التكلف الشنيع والتعمق البشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوما ان حسن فيه الظن أو ذما ان قوى فيه الارتياب وقلما يكون ذلك الا من خليع بطر أو مرتاب اشر فاما الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تصلوا على

النبي فخارج من هذا النوع من التلبيس وفى تاويله وجهان . أحدهما انه اراد النهى عن الصلاة فى المكان المرتفع المحدودب ماخوذ من النبوة. والثانى انه أراد الطريق ومنه سمى رسل الله انبياء لانهم الطرق اليه وانما زال عنه التلبيس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبيسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرف كلامه عن التجوز والاسترسال فى أمر او نهى الى مالا يجوز أن يرد به شرع وينهى عنه نبى وليس يمتنع ذلك فى غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره ومن آدابه ان يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بامثال العلماء الادباء فان لكل صنف من الناس امثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط الا مثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا وللسقاط امثال فنها تمثيلهم للشىء المريب كما قال الصنوبرى

اذا ما كنت ذا بول صحيح الا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان احداهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذى الهمة الساقطة الا مثل مرذول وتشبيه معلول والثانية ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين بها فبحسب ماهم عليه تكون امثالهم فلهاتين العلتين وقع الفرق بين امثال الخاصة وامثال العامة وربما ألف المتخصص مثلا عاميا اوتشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل فى ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكى عن الاصمعى ان الرشيد ساله يوما عن انساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله جنبيك اتخاطب امير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام فى محاورة الخلفاء من الاصمعى الذى هو واحد عصره وقريع دهره وللامثال من الكلام موقع فى الاسماع وتاثير فى القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تاثيرها لان المعانى بها لائحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الامثال فى كتابه العزيز وجعها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لانها فى العقول معقولة وفى القلوب مقبولة ولها أربعة شروط احدها صحة التشبيه والثانى ان يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا والثالث ان يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوهم من

غير ارتياء فى استخراجها ولا كد فى استنباطها والرابع ان تناسب حال السامع لتكون أبلغ تاثيرا واحسن موقعا فاذا اجتمعت فى الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبر اللافهام

﴿ الفصل الثانى فى الصبر والجزع ﴾ اعلم ان من حسن التوفيق وامارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى ( يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ) يعنى اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تاويلان احدهما على الجهاد والثانى على انتظار الصلوات وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتاكيد الصبر فيما أمر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ستر من المكروب وعون على الخطوب وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو وقال عبد الحميد لم اسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما افضل العدة الصبر على الشدة وقال بعض البلغاء من خير خلالك الصبر على اختلالك وقيل فى منثور الحكم من أحب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا وقال بعض الحكماء لصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ وقال بعض الشعراء وهو عبيد بن الابرص

صبر النفس عند كل ملم ان فى الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن فى الامور فقد تكـ ـشف غماؤها بغير احتيال
رب ما تجزع النفوس من الامـ ـر له فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع فى كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام أصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوى الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور متحملا ولجأشه عند الحفاظ مرتبطا

واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو فى كل قسم منها محمود . فاول اقسامه وأولاها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنه لانه به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال فى محكم الكتاب (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا او يدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه اترجو ان تلحق من الآخرة ما لا تطلبه . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

أراك امرأ ترجو من الله عفوه　　وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر　　فيا من يداوى الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند اوامره . والقسم الثانى الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد اجهده الحزن عليها أو حادثة قد كده الهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فان صبر طائعا والا احتمل هما لازما وصبر كارها آثما . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى (من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر ربا سواى) وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم وانت مأجور وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور . وقد ذكر ذلك أبو تمام فى شعره فقال

وقال على فى التعازى لاشعث　　وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وخشية　　فتؤجر أو تسلو سلو البهائم

وقال شبيب بن شيبة للمهدى ان أحق ما تصبر عليه ما لم تجد الى دفعه سبيلا وانشد

ولئن تصبك مصيبة فاصبر لها　　عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وقال آخر

تصبرت مغلوبا وانى لموجع　　كما صبر الظمآن فى البلد القفر

وليس اصطباری عنك صبر استطاعة ولكنه صبر أمر من الصبر

والقسم الثالث الصبر على مافات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز نيله من مسرة مألوفة فان الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد اليأس خرق. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فالئك لهم الامن وهم مهتدون. وقال بعض الحكماء اجعل ماطلبته من الدنيا فلم تنله مثل مالا يخطر ببالك فلم تقله. وقال بعض الشعراء

اذا ملك القضاء عليك أمرا فليس يحله غير القضاء

فمالك والمقام بدار ذل ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على مافات من يدك فاجزع على مالا يصل اليك فاخذه بعض الشعراء فقال

لاتطل الحزن على فائت فقلما يجدى عليك الحزن

سيان محزون على فائت ومضمر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها او يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم مالم يات فان اكثر الهموم كاذبة وان الاغلب من الخوف مدفوع. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب لج. وقال الحسن البصرى رحمه الله لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه. وانشد الجاحظ لحارثة بن زيد

اذا الهم امسي وهو داء فأمضه ولست بممضيه وأنت تعادله

ولا تنزلن أمر الشديدة بامرىء اذا هم امرا عوقته عواذله

وقل للفؤاد ان تجد بك نزوة من الروع فافرح اكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فانه ان ادهشه التوقع لها واذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان ابعد لرجائه واعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فأبصر رشده وعرف

قصده وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ضياء يعني والله أعلم انه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور · وقال اكثم بن صيفي من صبر ظفر . وقال ابن المقفع كان مكتوبا في قصر اردشير الصبر مفتاح الدرك . وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب . وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى . وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا سدت مطالبها    فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
لاتياسن وان طالت مطالبة    اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته    ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من امر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الاراء وتستدفع مكايد الاعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه . وقد قال الله تعالى (واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر . وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الصبر مستاصل الحدثان والجزع من اعوان الزمان . وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور . وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج . وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففي ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال الان جاءكم الفرج فما لبثوا أن أصيب سليمان عليه السلام ميت على عصاه فاذا كان هذا في نبي من أنبياء الله يعمل بامره ويقف على حده فكيف بما جرت به الاقدار من يد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي الا منقرضة وعند

بلوغ الغاية الا منحسرة . وأنشد بعض الادباء لعثمان بن عفان رضى الله عنه

خليلى لا والله مامن ملمة ... تدوم على حى وان هى جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها ... ولا تكثر الشكوى اذا النعل ذلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب ... فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بامواج غمرة ... تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسى عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يانفس موتى كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب اذا قارنت حزما وصادفت عزما هان وقعها وقل تاثيرها وضررها . فمنها استشعارها النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضى المسار وان لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامثلى ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى ظل شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها وسئل على بن ابى طالب رضى الله عنه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر . وسال بعض خلفاء بنى العباس جليساله عن الدنيا فقال اذا أقبلت أدبرت . وقال عمرو بن عبيد الدنيا امد والآخرة ابد . وقال انوشروان ان أحببت ان لا تغتم فلا تقتن ما به تهتم فاخذه بعض الشعراء فقال

ألم تران الدهر من سوء فعله ... يكدر ما أعطى و يسلب ما أسدى
فمن شره ان لا يرى من يسوؤه ... فلا يتخذ شيا يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقراط خير قضية ... ووصية تنفى الهموم الركدا
قال الهموم تكون من طبع الورى ... فى لبث ما فى طبعه ان ينفدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا ... للسكر فانكسرت فلا تك مكمدا

وأنشدنى بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات ... وعوار مسترده
شدة بعد رخاء ... ورخاء بعد شده

ولما قتل بزرجمهر وجد فى جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن الكد وان لم يكن للامر دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة وقال ابن الرومى

رأيت حياة المرء رهنا بموته　　وصحته رهنا كذلك بالسقم

اذا طاب لى عيش تنغص طيبه　　بصدق بقيتى أن سيذهب كالحلم

ومن كان فى عيش يراعى زواله　　فذلك فى بؤس وكان فى نعم

ومنها ان يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وانها تتقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كان كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر و ياخذ منها بنصيب حتى تنجلى وهو عنها غافل . وحكى ان الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم يمضى من نعيمك يمضى من بؤسى مثله والامر قريب والحكم لله تعالى فاخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

لو ان ما أنتمو فيه يدوم لكم　　ظننت ما انا فيه دائما ابدا

لكننى عالم أنى وانكم　　سنستجد خلاف الحالتين غدا

وانشد لبعض الشعراء

عواقب مكروه الامور خيار　　وأيام ضر لا تدوم قصار

وليس بباق بؤسها ونعيمها　　اذا كر ليل ثم كر نهار

وانشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين حضرته الوفاة

الم تر ان ربك ليس تحصى　　اياديه الحديثة والقديمه

تسل عن الهموم فليس شىء　　يقيم ولا همومك بالمقيمه

لعل الله ينظر بعد هذا　　اليك بنظرة منه رحيمه

ومنها ان يعلم ان فيما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو اعظم من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى فى أثناء كل محنة منحة . وقيل للشعبى فى نائبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعراء

لا تكره المكروه عند حلوله　　ان العواقب لم تزل متباينه

كم نعمة لا تستقل بشكرها　　لله فى طى المكاره كامنه

ومنها ان يتاسى بذوى الغير و يتسلى باولى العبرو يعلم انهم الا كثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسى وحسن العزا ما يخفف شجوه و يقل هلعه وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الصقوا بذوى الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثى الشعراء قال البحترى

فلا عجب للاسدان ظفرب بها   كلاب الاعادى من فصيح واعجم
فحربة وحشى سقت حمزة الردى   وموت على من حسام ابن ملجم

﴿وقال أبو نواس﴾

المرء بين مصائب لا تنقضى   حتى يوارى جسمه فى رمسه
فمؤجل يلقى الردى فى أهله   ومعجل يلقى الردى فى نفسه

ومنها ان يعلم ان النعم زائراة وانها لا محالة زائلة وان السرور بها اذا اقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا دبرت وانها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن . وقد قيل فى منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوق غاية ما يكره . وقال بعض الحكماء من علم ان كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء وقيل للحسن البصرى رحمه الله كيف ترى الدنيا قال شغلنى توقع بلائها عن الفرح برخائها فاخذه ابو العتاهية فقال

تزيده الايام ان أقبلت   شدة خوف لتصاريفها
كأنها فى حال اسعافها   تسمعه وقعة تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ماقرعت عصا على عصا الا فرح لها قوم وحزن آخرون وقال البحترى

متى ارت الدنيا نباهة خامل   فلا ترتقب الاخمول نبيه

﴿ وقال المتنبى﴾

بذا قضت الايام ما بين اهلها   مصائب قوم عند قوم فوائد

( وانشد بعض اهل الادب)

ألا إنما الدنيا غضارة ايكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تفرحن منها لشئ تفيده سيذهب يوم مثل ما انت ذاهب
وما هذه الايام الا فجائع وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله وذلك لاحدى علتين اما الان الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد فى عقله نقص من رزقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاء فى عقله وقال ابو العتاهية

ماجاوز المرء من اطرافه طرفا الا تخونه النقصان من طرف

وانشدنى بعض اهل الادب لابراهيم بن هلال الكاتب

اذا جمعت بين امرأين صناعة فاحببت ان تدرى الذى هو احذق
فلا تتفقد منهما غير ماجرت بهلهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

واما الان ذا الفضل محسود و بالاذى مقصود فلا يسلم فى بره من معاد واشتطاط منا . وقال الصنوبرى

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص و بلوى عالم الا على يد جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم . وقد قال الشاعر

فلا غروان يمنى عليم بجاهل فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره و يستفيده من الحنكة ببلاء دهره فيصلب عوده و يستقيم عموده و يكمل بادنى شدته ورخائه و يتعظ بحالة عفوه و بلائه - حكى عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضى بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال لى ياأبا العباس اسمع ما اقول

نوائب الدهر ادبتنى وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم الا ولى فيهما نصيب

كذاك من صاحب الليالى تغذوه من درها الخطوب

فقلت لمن هذه الابيات قال لى. ومنها ان يختبر امور زمانه و يتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع فى استواء ولا يؤمل ان تبقى الدنيا على حالة أو تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بؤسها ونعيمها . وانشد بعض الادباء

انى رأيت عواقب الدنيا فتركت ماهوى لما اخشى
فكرت فى الدنيا وعالمها فاذا جميع امورها تفنى
وبلوت اكثر اهلها فاذا كل امرىء فى شأنه يسعى
اسنى منازلها وارفعها فى العز اقربها من المهوى
تعفو مساويها محاسنها لافرق بين النعى والبشرى
ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى
اتراك تدرى كم رأيت من الاحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب باحد هذه الاسباب تخففت عنه احزانه و تسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء. وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا. وقال بعض الشعراء

ما يكون الامر سهلا كله انما الدنيا سرور وحزون
هون الامر تعش فى راحة قلما هونت الا سيهون
تطلب الراحة فى دار العنا ضل من يطلب شيأ لا يكون

فان أغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع مالا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا وقال بن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف فاذا تضاعف صار غير مطاق

فاذا ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامد هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى فى حتفه واعان على تلفه. فمن اسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تستفزوا الدموع بالتذكر وقال الشاعر

* ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة هلعا. ولذلك قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وقال بعض الشعراء

اذا بليت فثق بالله وارض به ان الذي يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لامرىء حيلة فيما قضى الله
الياس يقطع احيانا بصاحبه لا تياسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث وروى انس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما صبر من بث. وحكى كعب الاحبار انه مكتوب فى التوراة من اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانما يشكو ربه وحكى ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا فى دار فقالت ما هذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ما أراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون . وقد قيل فى منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه . وانشد بعض اهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق

*وقال بعض الشعراء*

لا تشك دهرك ما صححت به ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها الياس من جبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الاياس. فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر وقد قيل المصيبة بالصبر اعظم المصيبتين . وقال ابن الرومى

اصبرى ايتها النفس فان الصبر احجى
ربما خاب رجاء واتى ما ليس يرجى

كذاك من صاحب الليالى　　تغذوه من درها الخطوب

فقلت لمن هذه الابيات قال لى. ومنها ان يختبر امور زمانه و يتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع فى استواء ولا يؤمل ان تبقى الدنيا على حالة أو تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بؤسها ونعيمها. وانشد بعض الادباء

انى رأيت عواقب الدنيا　　فتركت ما اهوى لما اخشى

فكرت فى الدنيا وعالمها　　فاذا جميع امورها تفنى

وبلوت اكثر اهلها فاذا　　كل امرىء فى شأنه يسعى

اسنى منازلها وارفعها　　فى العز اقربها من المهوى

تعفو مساويها محاسنها　　لافرق بين النعى والبشرى

ولقد مررت على القبور فما　　ميزت بين العبد والمولى

اتراك تدرى كم رأيت من　　الاحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب باحد هذه الاسباب تخففت عنه احزانه وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء. وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا. وقال بعض الشعراء

ما يكون الامر سهلا كله　　انما الدنيا سرور وحزون

هون الامر تعش فى راحة　　قلما هونت الا سيهون

تطلب الراحة فى دار العنا　　ضل من يطلب شيأ لا يكون

فان أغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع مالا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا وقال بن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف　　فاذا تضاعف صار غير مطاق

فاذا ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامد هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى فى حتفه واعان على تلفه. فمن اسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تستفزوا الدموع بالتذكر وقال الشاعر

* ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة هلعا. ولذلك قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وقال بعض الشعراء

اذا بليت فثق بالله وارض به ان الذى يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لامرىء حيلة فيما قضى الله
الياس يقطع احيانا بصاحبه لا تياسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث وروى انس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما صبر من بث. وحكى كعب الاحبار انه مكتوب فى التوراة من اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانما يشكو ربه وحكى ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا فى دار فقالت ما هذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ما أراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون. وقد قيل فى منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه. وانشد بعض اهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق

*وقال بعض الشعراء*

لا تشك دهرك ما صححت به ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها الياس من جبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الاياس. فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر وقد قيل المصيبة بالصبر اعظم المصيبتين. وقال ابن الرومى

اصبرى ايتها النفس فان الصبر احجى
ربما خاب رجاء واتى ما ليس يرجى

وانشدنی بعض اهل العلم

أتحسب ان البؤس للحر دائم ولودام شیٔ عده الناس فی العجب
لقد عرفت الحادثات ببؤسها وقدادبت ان کان ینفعك الادب
ولوطلب الانسان من صرف دهره دوام الذی یخشی لاعیاه ماطلب

ومنها ان یغری بملاحظة من حیطت سلامته وحرست نعمته حتی التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة و یری انه قدخص من بینهم بالرزیة بعدان کان مساو یا وافرد بالحادثة بعدان کان مکافیافلایستطیع صبرا علی بلوی ولایلزم شکرا علی نعمی ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شارکه فی الرز یة وساواه فی الحادثة لتکافا الامران فهان علیه الصبر وحان منه الفرج. وانشدت لامرأة من العرب

ایها الانسان صبرا ان بعد العسر یسرا
کم رأینااليوم حرا لم یکن بالامس حرا
ملك الصبر فاضی مالکا خیرا وشرا
اشرب الصبروان کا ن من الصبر أمرا

﴿وانشدت لبعض اهل الاب﴾

یراع الفتی للخطب تبدصدوره فیاسی وفی عقباه یاتی سروره
ألم تران اللیل لما ترا کمت دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن الیاس ان کنت عالما لبیبا فان الدهر شتی اموره

واعلم انه قل من صبر علی حادثة وتماسك فی نکبة الا کان انکشافها وشیکاوکان الفرج منه قر یبا اخبرنی بعض اهل الادب ان ابا ایوب الکاتب حبس فی السجن خمس عشرة سنة حتی ضاقت حیلته وقل صبره فکتب الی بعض اخوانه یشکو له طول حبسه فرد علیه جواب رقعته بهذا

صبرا أبا ایوب صبر مبرح فاذاعجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذی عقدالذی انعقدت له عقد المکاره فیك یملك حلها
صبرا فان الصبر یعقب راحة ولعلها ان تنجلی ولعلها

فاجابه ابوایوب یقول

صبرتنى ووعظتنى وانا لها    وستنجلى بل لا اقول لعلها
و يحلى من كان صاحب عقدها    كرما به اذ كان يملك حلها

فلم يلبث بعد ذلك فى السجن الا أياما حتى أطلق مكرما. وانشد ابن دريد عن أبى حاتم

اذا اشتملت على اليأس القلوب    وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمانت    وارست فى مكانتها الخطوب
ولم ير لانكشاف الضر وجها    ولا أغنى بحيلته الاريب
اتاك على قنوط منك غوث    يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات اذا تناهت    فموصول بها الفرج القريب

﴿الفصل الثالث فى المشورة﴾ اعلم ان من الحزم لكل ذى لب أن لا يبرم أمرا ولا يمضى عزما الا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراجح فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعد به من تاييده فقال تعالى (وشاورهم فى الامر). قال قتادة أمره بمشاورتهم تالفا لهم وتطييبا لانفسهم وقال الضحاك امره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل. وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى امره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المشورة حصن من الندامة وامان من الملامة وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيما اشكل عليه وينزل حيث يامره أهل الرأى ورجل حائر بامره لا ياتمر رشدا ولا يطيع مرشدا. وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ولا يفقد معهما حزم. وقال سيف ابن ذى يزن من اعجب برأيه لم يشاور ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيدا. وقال عبد الحميد المشاور فى رأيه ناظر من ورائه. وقيل فى منثور الحكم المشاورة راحة لك وتعب على غيرك. وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه. وقال بعض الادباء ما خاب من استخار ولا ندم من استشار. وقال بعض البلغاء

من حق العاقل ان يضيف الى رأيه اراء العقلاء و يجمع الى عقله عقول الحكماء فالرأى الفذر بما زل والعقل الفرد بماضل. وقال بشار بن برد

اذا بلغ الرأى المشور فاستعن    برأى نصيح اونصيحة حازم
ولاتجعل الشورى عليك غضاضة    فان الخوافى قوة للقوادم

فاذاعزم على المشاورة ارتاد لهامن أهلها من قداستكملت فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فانه بكثرة التجارب تصح الروية. وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولاتعصوه فتندموا * وقال عبدالله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل • وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأنا الف حازم وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب فى غيره اوكبير قد أخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه وقيل فى منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة وقال بعض الحكماء التجارب ليست لها غاية والعاقل منها فى زيادة. وقال بعض الحكماء من استعان بذوى العقول فاز بدرك المأمول • وقال ابو الاسود الدؤلى

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه    ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذاما استجمعا عند صاحب    فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ــ ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة . روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اراد امرا فشاور فيه امرأ مسلما وفقه الله لارشد اموره. والخصلة الثالثة ــ ان يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكرة و يمحضان الرأى . وقد قال بعض الحكماء لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النساء فان رأيهن الى الأفن وعزمهن الى الوهن وقال بعض الادباء مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر وقال

بعض الشعراء اصف ضمير المرء من تعاشره ... واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء فى مودته ... بما يؤدى اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد احدا ... تصح منهم له سرائره
اوشك ان لا يدوم وصل اخ ... فى كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة — ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر . وقد قيل فى منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب وكان كسرى اذا دهمه أمر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا فى الرأى ضرب قهارمته وقال ابطأتم بارزاقهم فاخطأوا فى آرائهم وقال صالح بن عبد القدوس

ولا مشير كذى نصح ومقدرة ... فى مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة — ان لا يكون له فى الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والرأى اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد . وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابى لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهلا ... ويردى الهوى ذا الرأى وهو لبيب
ويحمد فى الامر الفتى وهو مخطئ ... ويعذل فى الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس فى رجل كان اهلا للمشورة ومعدنا للرأى فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة اسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ( رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما هلك احد عن مشورة فاذا اراد الله بعبد هلكة كان اول ما يهلكه رأيه ) . وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وانت تاخذه مجانا . وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك الرأى . وقال بعض الادباء من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل وقال بعض البلغاء الخطا مع الاسترشاد احمد

من الصواب مع الاستبداد وقال الشاعر

خليلى ليس الرأى فى صدر واحد اشيرا على بالذى تريان

ولا ينبغى ان يتصور فى نفسه انه ان شاور فى امره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر الى رأى غيره فان هذه معاذير النوكى وليس يراد الرأى للمباهاة به وانما يراد للانتفاع به بنتيجته والتحرز عن الخطاء عند زلله وكيف يكون عارا ما ادى الى صواب وصد عن خطاء وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على ترك أموركم بالمشاورة • وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك • وقال بعض البلغاء اذا أشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور فارجع الى رأى العقلاء وافزع الى اشتشارة العلماء ولا تانف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلأن تسال وتسلم خير لك من ان تستبد وتندم وينبغى ان تكثر من استشارة ذوى الالباب لاسيما فى الامر الجليل فقلما يضل عن الجماعة رأى ويذهب عنهم صواب لان ارسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز وقد قيل فى منثور الحكم من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطاء عاذرا وان كان الخطاء من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف اهل الرأى فى اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب الفرس أن الاولى اجتماعهم على الارتياء واجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وانتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض او توجه عليه رد نوقض كالجدل الذى تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه وخلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب غيرهم من أصناف الامم الى ان الاولى استسرار كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره فى الرأى طمعا فى الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فوضت وكان الاول من بدائها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثانى أظهر والذى اراه فى الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر فى الشورى فان كانت فى حال واحدة هل هى صواب ام خطا كان اجتماعهم عليها اولى لان ما تردد بين امرين فالمراد منه الاعتراض على فساده أو ظهور الحجة فى صلاحه وهذا مع الاجتماع ابلغ

وعند المناظرة اوضح وان كانت الشورى فى خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من امور خافية واحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالاولى فى مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد فى الجواب ثم يقع الكشف عنه اخطأ هو ام صواب فيكون الاجتهاد فى الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد فى الاجتهاد اوضح والاجتماع على المناظرة ابلغ فهذا هداه وينبغي ان يسلم اهل الشورى من حسد او تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم فى الارتياء والاجتهاد فاذا تصفح عن اقاويل جميعهم كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون فى الامر مقلدا ولا فى الرأى مفوضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احداهن معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأى وافتتاح ما اغلق من الصواب فاذا تقرر له الرأى امضاه ولا يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لاسيما والمقادير غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه واسلم الى نفسه فصار فرد الايعان برأى ولا يمد بمشورة وقد قالت الفرس فى حكمها اضعف الحيلة خير من اقوى الشدة واقل التأنى خير من اكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد واذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى اهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الرأى كالضالة تؤخذ اين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فان الدرة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وانشد ابو العيناء عن الاصمعى

النصح ارخص ما باع الرجال فلا … تردد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهجها … على الرجال ذوى الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له رأى ان ينى فى امضائه فان الزمان غادر والفرص منتهزة والثقة عجز وقيل لملك زال عنه ملكه ما الذى سلبك ملكك قال تأخيرى عمل اليوم لغد وقال الشاعر اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة … ولا تك بالترداد للرأى مفسدا

فانی رأیت الریث فی العزم هجنة　　وانفاذ ذی الرأی العزیمة ارشدا

وینبغی لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح الموادحتی صار مامول النجح مرجو الصواب ان یؤدی حق هذه النعمة باخلاص السریرة ویکافیء علی الاستسلام ببذل الناصح فقدروی عن النبی صلی الله علیه وسلم انه قال ان من حق المسلم علی المسلم اذا استنصحه ان ینصحه وربما ابطرته المشاورة فاعجب برأیه فاحذره فی المشاورة فلیس للمعجب رأی صحیح ولا رویة سلیمة وربما شح فی الرأی لعداوة أوحسد أومکر فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو اوصدیق ان یکتم رأیا وقد استرشد ولا ان یخون وقد أؤتمن. روی محمد بن المنکدر عن عائشة رضی الله عنها ان النبی صلی الله علیه وسلم قال المستشیر معان والمستشار مؤتمن وقال سلیمان بن درید

وأجب أخاك اذا استشارك ناصحا　　وعلی أخیك نصیحة لا تردد

ولا ینبغی ان یشیر قبل ان یستشار الا فیما مس ولا ان یتبرع بالرأی الا فیما لزم فانه لا ینفك من ان یکون رأیا متهما اومطرحا وفی ای هذین کان وصمة وانما یکون الرأی مقبولا اذا کان عن رغبة وطلب اوکان لباعث وسبب روی أبو بلال العجلی عن حذیفة ابن الیمان عن النبی صلی الله علیه وسلم انه قال قال لقمان لابنه یابنی اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فاعن واذا استشرت فلا تعجل حتی تنظر وقال بیهس الکلابی

من الناس من ان یستشرك فتجهد　　له الرأی یستغششك مالا تبایعه

فلا تمنحن الرأی من لیس اهله　　فلا أنت محمود ولا الرأی نافعه

﴿الفصل الرابع فی کتمان السر﴾ اعلم ان کتمان الاسرار من اقوی اسباب النجاح وادوم لاحوال الصلاح روی عن النبی صلی الله علیه وسلم انه قال استعینوا علی الحاجات بالکتمان فان کل ذی نعمة محسود وقال علی بن أبی طالب کرم الله وجهه سرك اسیرك فان تکلمت به صرت اسیره وقال بعض الحکماء لابنه یابنی کن جوادا بالمال فی موضع الحق ضنینا بالاسرار عن جمیع الخلق فان احمد جود المرء الاتفاق فی وجه البر والبخل بمکتوم السر. وقال بعض الادباء من کتم سره کان الخیار الیه ومن افشاه کان الخیار علیه وقال بعض البلغاء ما اسرك ما کتمت سرك وقال بعض الفصحاء مالم

تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع وقال بعض الشعراء وهو انس بن اسيد

ولا تفش سرك الااليك　　فان لكل نصيح نصيحا

فانى رأيت وشاة الرجال　　لا يتركون اديما صحيحا

وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفى عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا وقال أنوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره اقبح من اظهار سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا او النميمة ان كان مستودعا فاما الضرر فربما استويا فيه او تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفى الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاثة احوال مذمومة احداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر وقال الشاعر

اذا المرء افشى سره بلسانه　　ولام عليه غيره فهو احمق

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه　　فصدر الذى يستودع السر اضيق

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد ارقته واعلم ان من الاسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره امينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر فى اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال امينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال ايسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما اضاع من سره كبيرا فى جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الاسرار أشد تعذرا واقل وجودا من أمناء الاموال وكان حفظ المال أيسر من كتم الاسرار لان احراز الاموال منيعة واحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه القلوب أوعية الاسرار والشفاه أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرىء مفتاح سره . ومن صفات

أمين السر أن يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب. وقيل فى منثور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن. وقيل فى منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك . وقال صالح بن عبد القدوس

لا تذع سرا الى طالبه ... منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامرين أحدهما ان اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها . والثانى أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا. وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ ... وسر الثلاثة غير الخفى

﴿وقال آخر﴾

فلا تنطق بسرك كل سر ... اذا ما جاوز الاثنين فاشى

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع التعبد ولذلك قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وأرجو أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال اللئام . وحكى أن رجلا أسر الى صديق له حديثا له ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال احجد المخبر واحلف للمستخبر. وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت ... منى الضلوع على الاسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره ... اذ كنت من نشرها يوما على خطر

(١) وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه

---

(١) لا يخفى ما فى هذه الابيات من الاضطراب وعدم التماسك. والرواية الصحيحة

ومستودعی سرا تضمنت سره　　فاودعته من مستقر الحشا قبرا
ولکننی أخفیـه عنی کاننی　　من الدهر یوما ما احطت به خبرا
وما السر فی قلبی کمیت بحفرة　　لانی أری المدفون ینتظر النشرا

(الفصل الخامس فی المزاح والضحك) اعلم أن للمزاح ازاحـة عن الحقوق ومخرجا الی القطیعة والعقوق یصم المـازح ویؤذی الممازح فوصمة المازح ان یذهب عنه الهیبة والبهاء ویجری علیه الغوغاء والسفهاء وأما اذیة المماز ح فلانه معقوق بقول کریه وفعل ممض ان امسك عنه أحزن قلبه وان قابل علیـه جانب ادبه فحق علی العاقل أن یتقیه وینزه نفسه عن وصمة مساویه وقد روی عن النبی صلی الله علیه وسـلم انه قال المزاح اسـتدراج من الشیطان واختداع من الهوی . وقال عمر بن عبدالعزیز اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغینة وقال بعض الحـکماء انمـا المزاح سباب الا ان صاحبه یضحك وقیل انما سمی المزاح مزاحا لانه یزیح عن الحق وقال ابراهیم النخعی المزاح من سخف او بطر. وقیل فی منثور الحکما المزاح یاکل الهیبة کما تاکل النار الحطب وقال بعض الحکماء من کثر مزاحه زالت هیبته ومن کثر خلافه طابت غیبته وقال بعض البلغاء من قل عقله کثر هزله. وذکر خالد بن صفوان المزاح فقال یصك احدکم صاحبه باشد من الجندل وینشقه احرق من الخردل ویفرغ علیه احر من المرجل ثم یقول انما کنت امازحك. وقال بعض الحکماء خیر المزاح لا ینال وشره لا یقـال فنظمه النیسابوری فی قصیدته الجامعة للآداب فقال وزاد

شر مزاح المرء لا یقال　　وخیره یا صاح لا ینال
وقد یقال کثرة المزاح　　من الفتی تدعو الی التلاحی

---

ماذکره الصفدی فی شرح لامیة العجم نقلا عن صاحب هـذا الـکتاب قال مانصه.
وحکی الماوردی ان عبدالله بن طاهر تذاکر الناس فی مجلسه حفظ السر فقال

ومستودعی سرا تضمنت سره　　فاودعته من مستقر الحشا قبرا

فقال ابنه عبدالله وهو صبی

وما السر فی قلبی کمثاو بحفرة　　لانی أری المدفون ینتظر الحشرا
ولـکننی أخفیـه عنی کاننی　　من الدهر یوما ما احطت به خبرا

ان المزاح بدؤه حلاوه لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجل الشريف ويجتري بسخفه السخيف

﴿ وقال أبو نواس ﴾

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
انما السالم من ألجم فاه بلجام
ربما استفتح بالمزح مغاليق الحمام
والمنايا آكلات شاربات للأنام

واعلم انه قلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه احدى حالتين لا ثالثة لهما احداهما ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل وقد قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرىء عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين والحالة الثانية ان ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من سام واحدث به من هم فقد قيل لا بد للمصدور ان ينفث وانشدت لابي الفتح البستي أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال اني لامزح ولا أقول الا حقا فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى أن عجوزا من الانصار أتته فقالت يا رسول الله ادع لي بالمغفرة فقال أما علمت ان الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما قرأت من القرآن قول الله عز وجل انا انشاناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا اترابا وأتته أخرى في حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك فقالت فلان فقال لها الذي في عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلا الي زوجها وجعلت تتامل عينيه فقال لها ما شانك فقالت أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في عينيك بياضا فقال اما ترين بياض عيني أكثر من سوادهما وأتى رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال اني احتلمت على امي فقال اقيموه في الشمس

واضربوا ظله الحد وسئل الشعبي عن أكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال ذلك نكاح ما شهدناه وقال رجل لغلام بكم تعمل معي قال بطعامي فقال له احسن قليلا قال فاصوم الاثنين والخميس وحكى عن أبي صالح بن حسان وكان محدثا انه قال يوما لاصحابه افقه الناس وضاح اليمن في قوله اذا قلت هاتي توليني تبرمت وقالت معاذ الله من فعل ماحرم

فما تولت حتى تضرعت عندها وانبأتها مارخص الله في اللمم

فاما الخروج الى حد الخلاعة فهجنة ومذمة كالذى حكى عن أبي معاوية الضرير وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول

واذا المعدة جاشت فارمها بالمنجنيق

بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق

اما ترى كيف طرق بخلاعته التهمة على نفسه بهذا المزح فيما لعله برىء منه وبعيد عنه وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه مسترسلا في مزاحه وروى بن قتيبة في المعارف ان مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه بردعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد جاء الامير وربما أتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أتاكل تمرا وبك رمد فقال يارسول الله انما أمضغ على الناحية الاخرى وانما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لان استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتقربا من قلبه والا فليس لاحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لان المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عز وجل أحكامه المؤدى الى خلقه أوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى من أن يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش ومن مستحسن المزح ومستسمح

الدعابة ماحكى الزبير بن بكار عن الكندى أن القشيرى وقف على شيخ من الاعراب فقال له ياأعرابى ممن أنت فقال من عقيل قال من أى عقيل قال من بنى خفاجة فقال القشيرى (رأيت شيخامن بنى خفاجة) فقال الاعرابى ماشانه قال (له اذا جن الظلام حاجه) فقال الاعرابى ماهى قال (كحاجة الديك الى الدجاجة) فاستعبر الاعرابى ضاحكا وقال قاتلك الله ماعرفك بسرائر القوم فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون وهذا غاية مايتسامح به الفضلاء من الخلاعة وان كان مستكره الفحوى والنزاهة من مثله أولى وليحذر أن يسترسل فى ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اعلان المساوى هزلا وهو مجد ويفسح له فى التشفى مزحا وهو محق. وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك وأما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر فى الامور المهمة مذهل عن الفكر فى النوائب الملمه وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار • وروى أبو ادريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب و يذهب بنور الوجه وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة. وقيل فى منثور الحكم ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول فى الضحك كالقول فى المزاح ان تجافاه الانسان نفرعنه وأوحش منه وان الفه كانت حاله ماوصفناه فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وبشرا. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه التبسم دعابة وهذا ابلغ فى الايناس من الضحك الذى قد يكون استهزاء وتعجبا وليس ينكر منه المرة النادرة لطارىء استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو املك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى ذكرناه

﴿الفصل السادس فى الطيرة والفال﴾ اعلم انه ليس شىء أضر بالراى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن ان خوار بقرة او نعيب غراب يرد قضاء او يدفع مقدرا فقد جهل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (لاعدوى ولا

طيرة ولا هامة ولا صفر ) فالعدوى ما يظنه الناس ومن تعدى العلل والامراض فاخبر انها لا تعدى فقيل يارسول الله انا نرى النقبة من الجرب فى مشفر البعير فتتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما أعدى الاول واما الهامة فهو ما كانت العرب فى الجاهلية تعتقده من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته فى القبر اسقونى . قال الزبرقان بن بدر يعنيها

(١) ياعمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضرب بك حتى تقول الهامة اسقونى

﴿ وقال ابراهيم بن هرمة ﴾

وكيف وقد صاروا عظاما واقبروا يصيح صداها بالعشى وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة سريع الى ورد الفناء كرامها

واما الصفر فهو كالحية يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

لا يمسك الساق من اين لا وصب ولا يعض على سر سوفه الصفر

وروى ابو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا ) وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
أى يوم تخصه بسعود والمنايا ينزلن فى كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود ونحوس تجرى لقوم وقوم

وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا أرادت سفرا نفرت اول طائر تلقاه فان طار يمنة سارت وتيمنت واذا طار يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال (اقروا الطير على وكناتها ) . وحكى عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير

---

( ١ ) الصواب ان هذا البيت لذى الاصبع العدوانى وهو شاعر جاهلى قديم كما فى خزانة الادب الكبرى للبغدادى والشواهد الكبرى للعينى والاغانى لابى الفرج مع اختلاف يسير فى الرواية

فقال ابن عباس لاخير ولاشر وقال لبيد

لعمرك ماتدري الضوارب فالحصى　　ولازجرات الطير ماالله صانع

واعلم انه قلمايخلو من الطيرة احد لاسيمامن عارضته المقادير في ارادته وصده القضاء عن طلبته فهو يرجو اليأس عليه اغلب و يامل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عزجل ومشيئته فاذا تطير احجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن ان القياس فيه مطرد وان العسرة في مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد فامامن ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه خور ولا يؤوب الا ظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات الاقبال فينبغي لمن مني بها وبلي ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه و يعلم ان قضاء الله تعالى عليه غالب وان رزقه له طالب وان الحركة سبب فلا يثنيه عنها مالا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض في عزائمه واثقا بالله تعالى ان اعطى وراضيا به ان منع فقد روى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه من الحسد ان لا يبغي وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى وقيل في منثور الحكم الخير في ترك الطيرة وليقل ان عارضه في الطيرة ريب أو خامره فيها وهم ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ( من تطير فليقل اللهم لا ياتي بالخيرات الا انت ولا يدفع السيئات الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله ) .

وقد روى ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انا انزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا وقل فيها عددنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها فهي ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بمافارق وترك ما استوحش منه الى ما انس به وأما الفال ففيه تقوية للعزم و باعث على الجد ومعونة على الظفر فقد

تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم فی غزواته وحروبه. وروى ابو هريرة ان رسول
رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاعجبته فقال أخذنا فالك من فيك فينبغى لمن تفاءل
ان يتاول الفال باحسن تاويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبی
صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمنطق روى ان يوسف عليه السلام شكا الى الله تعالى
طول الحبس فاوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث قلت رب السجن
أحب الى ولو قلت العافية أحب الى لعوفيت. وحكى ان المؤمل بن أميل الشاعر لما قال
يوم الحرة

شفت المؤمل يوم الحرة النظر　　ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمى فاتاه هاتف فی منامه فقال له هذا ما طلبت. وحكى ان لوليد بن يزيد بن عبد الملك
تفاءل يوما فی المصحف فخرج له قوله تعالى (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فمزق
المصحف وانشا يقول

اتوعد كل جبار عنيد　　فها انا ذاك جبار عنيد

اذا ما جئت ربك يوم حشر　　فقل يارب مزقنى الوليد

فلم يلبث الا أياما حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ
بالله من البغى ومصارعه والشيطان ومصايده وهو حسبنا وعليه توكلنا

﴿الفصل السابع فی المروءة﴾ اعلم ان من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة
التی هی حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الاحوال التی تكون على افضلها
حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق. روى عن النبی صلى
الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم
يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وقال بعض البلغاء من
شرائط المروءة ان يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الاثام وينصف فی الحكم ويكف
عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف
ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر
والاسم وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يامرك بالانفع
والمروءة تامرك بالاجمل

ولن تجد الاخلاق على ماوصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هى المروءة لا ما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس ان تركب الافضل من خلائقها والاجمل من طرائقها وان سلمت منها و بعيد ان تسلم الالمن استكمل شرف الاخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبعا. وقال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض　　　يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعا وفى المعوز ان يكون مستكملا لكان فى المستحسن من عادات دهره الموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها مالا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت ان مراعاة النفس على أفضل احوالها هى المروءة واذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة فى الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل سيد القوم اشقاهم وقال ابو تمام الطائى

والحمد شهد لا يرى مشتار　　　يجنيه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذى　　　لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبى ذلك فى قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم　　　الجود يفقر والاقدام قتال

﴿وله ايضا﴾ واذا كانت النفوس كبارا　　　تعبت فى مرادها الاجسام

والداعى الى استسهال ذلك شيئان احدهما علو الهمة والثانى شرف النفس أما علو الهمة فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص أنفة من خمول الضعة واستنكار المهانة النفس ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالى الامور واشرفها ويكره دنيها وسفسافها. وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال لا تصغرن هممكم فانى لم أر اقعد عن المكرمات من صغر الهمم. وقال بعض الحكماء الهمة رأية الجد . وقال بعض البلغاء علو الهمم بذر النعم . وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان أمرا ظفر به اعظمهما مروءة . وقال بعض الادباء من ترك التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيما . واما شرف النفس فانه به يكون قبول التاديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت عن الافضل وهى به عارفة ونفرت عن التاديب وهى

له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم آثر . وقد قيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا اشرفت النفس كانت للآداب طالبة وفى الفضائل راغبة فاذا مازجها صادف طبعا ملائما فنما واستقر فامامن منى بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لامراعوزته آلته وافسدته جهالته فصار كضرير يروم تعلم الكتابة وأخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الاعجزا والطلب الا عوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره . وقيل لبعض الحكماء من اسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت امنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته . وقال افنون التغلبي

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه  وتقواله للشيء ياليت ذاليا
لعمرك مايدرى امرؤ كيف يتقى  اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فانها تذهب ببهجة ماخولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم . وقيل فى منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فان صادف بهمته حظا نال به املا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب اذ ليس فى الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وانما هى كالسحاب الذى يمسك عن منابت الاشجار الى مغاوص البحار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فان صادف أرضا طيبة نفع وان صادف ارضا خبيثة ضر كذلك ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامة وان صادف نفسا دنية ضر وكان نقمة طامة وحكى ان موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فاوحى الله إليه ( قد ملكت اسفلها على أعلاها ) فقال يارب كنت أحب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه أليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا تجرد عن علو الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة فى الجلد الكسل والجبان الفشل تضيع قوته بكسله وجلده بفشله وقد قيل فى منثور الحكم من دام كسله خاب امله وقال بعض الحكماء نكح العجز التوانى فخرج منهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما الحرمان وقال بعض الشعراء

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها  هوانا بها كانت على الناس اهونا
فنفسك اكرمها وان ضاق مسكن  عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا

واياك والسكنى بمنزل ذلة يعدمسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة اولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب مالا يستحقه ومتخطيا الى التماس مالا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما مسهلة وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي

ان المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فاضاعها

أمرته نفس بالدناءة والخنا ونهته عن سبل العلا فاطاعها

فاذا أصاب من المكارم خلة يبني الكريم بها المكارم باعها

واعلم ان حقوق المروءة أكثر من ان تحصى واخفى من ان تظهر لان منها ما يقوم في الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء شروطها الا جملا يتنبه الفاضل لها بيقظته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما نذكر في هذا الفصل الاشهر من قواعدها واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين

احدهما شروط المروءة في نفسه . والثاني شروطها في غيره . فاما شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة أمور وهي العفة والنزاهة والصيانة . فاما العفة فنوعان أحدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم فنوعان أحدهما ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن الحرام فلان عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة واضحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقى * يريد بذبذبه الفرج وبقبقبه اللسان وبقبقبه البطن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أحب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن وحكى ان معاوية رضي الله عنه سأل عمرا عن المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال

هي العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما احل الله تعالى وسال يزيد فقال هي الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية انت مني حقا. وقال أبو شروان لابنه هرمز من الكامل المروءة فقال من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم اخوانه وقال بعض الحكماء من أحب المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذتها وقد أنشدني بعض أهل الادب للحسن بن علي رضي الله عنهما

الموت خير من ركوب العار　　والعار خير من دخول النار
والله من هذا وهذا جاري

والداعي الى ذلك شيآن أحدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة وقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تاويلان أحدهما لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك والثاني لا تتبع الاولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي توقعها عمدا وقال عيسى بن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه العيون مصايد الشيطان وقال بعض الحكماء من أرسل طرفه استدعى حتفه وقال بعض الشعراء

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا　　لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر　　عليه ولا عن بعضه انت صابر

وأما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح ومسولة الفضائح وليس عطب الا وهي له سبب وعليه ألب ولذلك قال النبي عليه السلام اربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب وقهرها عن هذه الاحوال يكون بثلاثة أمور أحدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك روى سعيد ابن سنان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تقبلوا الي بست اتقبل اليكم بالجنة قالوا وماهي يارسول الله قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخون غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم والثاني ترغيبها في الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله ما حرم شيا الا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على طاعته

احاجزا عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما امر الله تعالى بشيء الا وأعان عليه ولا نهى عن شيء الا وأغنى عنه والثالث أشعار النفس تقوى الله تعالى فى أوامره واتقاؤه فى زواجره والزامها ما الزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها ونه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازى المحسن ويكافئ المسيء وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روى ابن مسعود ان آخر ما نزل من القرآن (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وآخر ما نزل من التوراة (اذا لم تستحى فاصنع ما شئت) وآخر ما نزل من الانجيل (شر الناس من لا يبالى أن يراه الناس مسيئا) وآخر ما نزل من الزبور (من يزرع خيرا يحصد زرعه غبطة) فاذا أشعرها ما وصفت انقادت الى الكف واذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط وأما كف اللسان عن الاعراض فلأن عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء وهو مستسهل الكلف واذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بعماره وتخبط بمضاره وظن انه لتجافى الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك واهلك فلذلك قال صلى الله عليه وسلم ألا ان دماءكم وأموالكم واعراضكم حرام عليكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابداء الشرور واظهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يبقى مع هذه الامور وزن لموموق ولا مروءة لملحوظ ثم هو بها موتور موزور ولاجلها مهجور مزجور . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه وقال بعض الحكماء انما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال وما قدح فى الاعراض من الكلام نوعان أحدهما ما قدح فى عرض صاحبه ولم يتجاوز الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول والثانى ما تجاوز الى غيره وذلك أربعة أشياء الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أو شتم وربما كان السب انكاها للقلوب . وابلغها اثرا فى النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يصدر عن سفه او بذاء يحدث عن لؤم . وقد روى ابو سلمة عن أبى هريره ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة . وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر أسلم وهو بذوى المروءة اجمل فهذا اشرط . واما العفة عن المآثم فنوعان احدهما

الكف عن المجاهرة بالظلم والثانى زجر النفس عن الاسرار بخيانة . فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر الى فتنة أو جلاء فاما الفتنة فى الاغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس على البادىء بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله) . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها . وقال جعفر بن محمد الفتنة حصاد للظالمين . وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة اقرب شيء اجلا واسوأ شيء عملا وقال بعض الشعراء

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها الى مدية تحت الثرى تستثيرها

وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت فى يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيئا حتى اذا افنت ما وجدت اضمحلت وخمدت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيئان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من امتى تعيشوا فى أكنافهم والصادعن ذلك ان يرى آثار الله تعالى فى الظالمين فان لهم فيهم عبرا ويتصور عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اصبح ولم ينو ظلم أحد غفر الله له ما اجترم . وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا على اتق دعوة المظلوم فانه انما يسأل الله حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه . وقيل فى منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم . وقال بعض البلغاء من جار حكمه أهلكه ظلمه وقال بعض الشعراء

ومامن يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيبلى بظالم

واما الاستسرار بالخيانة فضعة لانه بيذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين . وقيل فى منثور الحكم من يخن يهن . وقال خالد الربعى قرأت فى بعض الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغى على الناس ولولم يكن من ذم الخيانة الا ما يجده الخائن فى نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى أمانته وجدوى ثقته لعلم ان ذلك من اربح بضائع جاهه واقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده فى نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ادا الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك . وروى سعيد بن

جبير قال لما نزلت هذه الآية (ومن أهل الكتاب من إن تامنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تامنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل يعنون ان اموال العرب حلال لهم لانهم من غير اهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب اعداء الله ما من شىء كان فى الجاهليه الا وهو تحت قدمى الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح ولمعرة الرياء افضح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزال امتى بخير ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما . وقال بعض الحكماء من التمس اربعا باربع التمس ما لا يكون من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون والداعى الى الخيانة شيئان المهانة وقلة الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه اقسام العفة وأما النزاهة فنوعان أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثانى النزاهة عن مواقف الريبة فاما المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناءة لؤم وهما ادفع شىء للمروءة وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى أعوذ بك من طمع يهدى الى طبع : وقال بعض الشعراء

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فان ذلك نقص منك فى الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الانفة فلا يقنع بما أوتى وان كان كثيرا لاجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقيرا لقلة انفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال اعظم خطرا فيرى بذل اهون الامرين لاجلهما مغنما وليس لمن كان المال عنده اجل ونفسه عليه اقل اصغاء لتانيب ولا قبول لتاديب : وروى ان رجلا قال يا رسول الله اوصنى قال عليك باليأس مما فى ايدى الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه ... سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبى صلى

الله عليه وسلم انه قال ان روح القدس نفثت في روعي ان نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ولا يحملنكم ابطاء الرزق على ان تطلبوه بمعاصي الله تعالى فان الله عز وجل لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط واما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين وينا له ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك وسئل محمد بن علي عن المروءة فقال ان لا تعمل في السر عملا تستحي منه في العلانية وقال حسان بن أبي سنان ما وجدت شيئا هو أهون من الورع قيل له وكيف قال اذا ارتبت بشيء تركته والداعي الى هذه الحال شيئان الاسترسال وحسن الظن والمانع منهما شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة وقد حكي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال يا روح الله ما تصنع هنا فقال الطبيب انما يداوي المرضى ولكن لا ينبغي ان يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه اغلب والى الخوف من تصديق التهم اقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابعد خلق الله من الريب واصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رأياه اسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله أوفيك شك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت ان يقذف في قلبيكما سوءا فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى في مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في حقه افك وقد قال الشاعر

أصونك ان ادل عليك ظنا   لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف. وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر

الصولى رحمه الله قوله

احسنت ظنى باهل دهرى فحسن ظنى بهم دهانى
لا آمن الناس بعد هذا ما الخوف الامن الامان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعى النزاهة . وأما الصيانة وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان احدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها و تقدير مادتها والثانى صيانتها عن تحمل المنن من الناس والاسترسال فى الاستعانة فاما التماس الكفاية و تقدير المادة فلان المحتاج الى الناس كل مهتضم وذليل مستسقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده ليقيم اود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب فى امثالها كلب جوال خير من أسد رابض . ومايستمده نوعان لازم وندب . فاما اللازم فما قام بالكفاية وافضى الى سد الخلة وعليه فى طلبه ثلاثة شروط . احدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقى المحظورة فانّ المواد المحرمة مستخبثة الاصول ممحوقة المحصول ان صرفها فى بر لم يؤجر وان صرفها فى مدح لم يشكر ثم هو لاوزارها محتقب معاقب وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فان أنفقه لم يقبل منه وان امسكه فهو زاده الى النار) وقال بعض الحكماء شر المال مالزمك اثم مكسبه وحرمت أجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى رجل من اصحاب يصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم . وقال على بن الجهم السلطان

سر من عاش ماله فاذا حا سبه الله سره الاعدام

والثانى طلبه من احسن جهاته التى لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها . وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ياحبذا المال اصون به عرضى وأرضى به ربى . وقال أبو بشر الضرير

كفى حزنا أنى اروح واغتدى ومالى من مال اصون به عرضى
واكثر مالقى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وسئل ابن عائشة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم (اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه) فقال معناه من احسن الوجوه التى تحل . والثالث ان يتأنى فى تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة التدبير اجدى نفعا واحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر فى

الارض اذار وعى يسيره زكاوان أهمل كثيره اضمحل • وقال محمد بن على رضى الله عنه الكمال فى ثلاثة العفة فى الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير فى المعيشة . وقيل بعض الحكماء فلان غنى فقال لا أعرف ذلك مالم اعرف تدبيره فى ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد ادى حق المروءة فى نفسه • وسئل الاحنف ابن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة وقال بعض الحكماء لابنه يابنى لاتكن على أحد كلا فانك تزداد ذلا واضرب فى الارض عوداو بدأ ولا تأسف لمال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب فهذا حال اللازم وقد كان ذووا الهمم العلية والنفوس الابية يرون ماوصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل اليه ارثا لانه فى الارث فى جدوى غيره وبالكسب مجد الى غيره وفرق مابينهما فى الفضل ظاهر • وقال كشاجم

لا استلذ العيش لم اداب له طلبا وسعيا فى الهواجر والغلس
وأرى حراما ان يؤاتينى الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك عن اخيك موفرا فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

واما الندب فهو مافضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفاء فحسبه ما كفاه فليس فى الزيادة الا شره ولا فى الفضول الا نهم وكلاهما مذموم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى) وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل • وقال عبد الله بن مسعود المستغنى عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن. وقال بعض الحكماء اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا التجافيها عن الكرام • فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه أريحية الكرم وآثر ان يكون رأسا ومقدما وان يرى فى النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فائضا فقد قيل لبعض العرب ما المروءة فيكم قال طعاما مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول . وقد قال الاحنف بن قيس

فلو مد سروى بمال كثير لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع اذا لم يكن مالها فاضلا

وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة فلان المنة استرقاق الاحرار تحدث ذلة فى الممنون عليه وسطوة فى المان به والاسترسال فى الاستعانة تثقيل ومن

ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان . وقال رجل لعمر رضي الله عنه خدمك بنوك فقال اغناني الله عنهم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن في وصيته له يا بني ان استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله تعالى أكرم واعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروءة فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل مريب . واصلاح الرجل ماله فانه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج اهله فانه لا ينبل من احتاج الى اهله ولا من احتاج اهله الى غيره وانشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه  وأخو الحوائج وجهه مملول

واخوك من وفرت ما في كيسه  فاذا عبثت به فانت ثقيل

وان كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعد والمظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافئون فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع باكرته فليس من هذا بد ولا لاحد عنه غنى وانما الذي يتصونعنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن ان يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويسارعون ان يعينوا الا ان يكون لهم يد ومن اقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال فقد اوهى مروءته واستبذل صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب ألم أو حادث هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان اغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له في التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم أنجح وهي عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون لهم مساويا وليصبرن على ابطائهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذلك قيل قدم لحاجتك بعض لجاجتك وقال ابو سارة سحيم بن الاعرف

تعد قرابة وتعد صهرا  ويسعد بالقرابة من رعاها

ومازرناك من عدم ولكن  يهش الى الامارة من رجاها

واياما فعلت فان نفسي  تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة لكن ان وجده قرضا مردودا لم يأخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به في المروءات

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم
قضى فاحسن وقال صلى الله عليه وسلم من اعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله
وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله فى أرضه • وقال البحترى

ان لم يكن كثر فقل عطية　　يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضا
أولم يكن هبة فقرض يسرت　　اسبابه وكواهب من اقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال . وقد روى عن على بن ابى طالب رضى
الله عنه انه قال من اراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قيل وما فى خفة
الرداء من البقاء قال قلة الدين فان اعوزه ذلك الا استمناحا فهو الرق المذل ولذلك قيل
لا مروءة لمقل • وقال بعض الحكماء من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك
عزه وجلالته والذى يتماسك به الباقى من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة
السائلين وان لم يبق لذى رغبة مروءة ولا لسائل تصون اربعة امور هى جهد المضطر
أحدها ان يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن
من التجمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء متى
يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل وأنشد بعض اهل الادب لعلى بن الجهم

هى النفس ما حملتها تتحمل　　وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة　　واحسن اخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن الحر نعمة　　ولكن عارا ان يزول التجمل

والثانى ان يقتصر فى السؤال على ما دعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل
ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر فى ضرورته • وقد قال بعض
الحكماء من ألف المسئلة الفه المنع • والثالث ان يعذر فى المنع ويشكر على الاجابة فانه
ان منع فعما لا يملك وان اجيب فالى ما لا يستحق • فقد قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ فى ماله　　وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع ان يعتمد على سؤال من كان للمسئلة أهلا وكان النجح عنده مأمولا فان ذوى
المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل
فاعله والمرجو للاجابة من تكاملت فيه خصالها وهى ثلاث احداهن كرم الطبع فان

الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المخذول من كانت له الى اللئام حاجة والثانية سلامة الصدر فان العدو الب على نكبتك وحب فى نائبتك وقد قيل من أوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه ورحمك بحسن ظفره فاعظم بها محنة أن يصير عدوك لك راحما. وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحمينا

والثالث ظهور المكنة فان من سال مالا يمكن فقد أحال وكان كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا. وقد قال على كرم الله وجهه من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو أحمق ووصى عبد الله بن الاهتم ابنه فقال يابنى لا تطلب الحوائج من غير أهلها ولا تطلبها فى غير حينها ولا تطلب مالست له مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان وقال الشاعر

ولا تسالن امرأ حاجة يحاول من ربه مثلها
فيترك ما كنت حملته ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة فى نفسه. وأما شروط المروءة فى غيره فثلاثة الموازرة والمياسرة والافضال أما الموازرة فنوعان أحدهما الاسعاف بالجاه والثانى الاسعاف فى النوائب فاما الاسعاف بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ أمرا وهو أرخص المكارم ثمنا وألطف الصنائع موقعا وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل الذى يلجا اليه المضطرون والحمى الذى ياوى اليه الخائفون فان أوطاه اتسع بكثرة الانصار والشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمى ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها ان يبخل به فيكون أسوأ حالا من البخيل بماله الذى قد يعده لنوائبه ويستبقيه للذته ويكنزه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه قد أضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائت واسفا على ضائع ومقتا يستحكم فى النفوس وذما قد ينتشر فى الناس وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى اليه أحسنهم صنيعا الى عياله وقال بعض الحكماء اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان

بلائك وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال بعض الادباء بذل الجاه أحد الحبائين وقال ابن الاعرابى العرب تقول من أمل شيئا هابه ومن جهل شيئا عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعارض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق وأنشد بعض الادباء لعلى بن عباس الرومى رحمه الله

لا يبذل العرف حين يبذله كمشترى الحمد أو كمعتاضه

بل يفعل العرف حين يفعله لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الاجر أحدها أن يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولا حسانه متسخطا فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال والثانى مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر وقد قيل للحكيم اليونانى من اضيق الناس طريقا وأقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه

والثالث ان لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفى مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وجدا والحمد عيبا ولذلك قال النبى صلى الله عليه سلم أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم وقال النابغة الجعدى

ألم تعلم ان الملامة نفعها قليل اذا ما الشىء ولى فادبرا

وأما الاسعاف فى النوائب فلأن الايام غادرة والنوازل غائرة والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الاعليم ولا يستنقذ منها الاسليم وقد قال عدى ابن حاتم

كفى زاجرا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله وقيل لبعض الحكماء هل شىء خير من الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف فى النوائب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما

اختص بثلاثة أصناف وهم الاهل والاخوان والجيران أما الاهل فلمماسة الرحم وتعاطف النسب. وقد قيل لم يسد من احتاج أهله الى غيره. وقال حسان بن ثابت

وان امرأ نال المنى لم ينل به     قريبا ولا ذا حاجة لزهيد

وان امرأ عادى الرجال على الغنى     ولم يسال الله الغنى لحسود

وأما الاخوان فلمستحكم الود ومتاكد العهد. وسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى فى كل مكان وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسال عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال أحدهما فقير والآخر غنى وأما الجار فلدنو داره واتصال مزاره قال على كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى بل الصبر على الاذى وقال بعض الحكماء من أجار جاره أعانه الله وأجاره وقال بعض البلغاء من أحسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره وقال بعض الشعراء

وللجار حق فاحترز من اذاته     وما خير جار لم يزل لك مؤذيا

فيجب من حقوق المروءة وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم واسعافهم فى نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة عند ظهور المكنة أن يكلهم الى غيره أو يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل كرم نفسه عنهم فانهم عيال كرمه واضياف مروءته فكما انه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه واضافته مروءته وقال بعض الشعراء

حق على السيد المرجو نائله     والمستجار به فى العرب والعجم

أن لا ينيل الاقاصى صوب راحته     حتى يخص به الادنى من الخدم

ان الفرات اذا جاشت غواربه     روى السواحل ثم امتد فى الامم

وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض فى حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرياسة وقيل لبعض الحكماء أى شئ من أفعال الناس يشبه أفعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم مالم يلتجأ اليه مضطر لان القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا

حكم الموازرة وأما المياسرة فنوعان أحدهما العفو عن الهفوات والثانى المسامحة فى الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص أو خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريئا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا وقد قالت الحكماء لا صديق لمن أراد صديقا لا عيب فيه وقيل لانوشروان هل من أحد لا عيب فيه قال من لا موت له واذا كان الدهر لا يوجده ما طلب ولا ينيله ما أحب وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ومياسرة اخوانه فى الصفح والاغضاء روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى باداء الفرائض وقال بعض الادباء ثلاث خصال لا تجتمع الا فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال وقال ابن الرومى

فعذرك مبسوط لذنب مقدم ... وودك مقبول باهل ومرحب

ولو بلغتنى عنك أذنى أقمتها ... لدى مقام الكاشح المتكذب

فلست بتقليب اللسان مصارما ... خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب والهفوات نوعان صغائر وكبائر فالصغائر مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقبحا وقد قال بعض العلماء من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده فى غير أوانه وقال أبو العتاهية

وشر الاخلاء من لم يزل ... يعاتب طورا وطورا يذم

يريك النصيحة عند اللقاء ... ويبريك فى السر برى القلم

وأما الكبائر فنوعان أن يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالحرج فيهما مرفوع والعتب عليها موضوع لان هفوة الخاطئ هدر ولومه هذر وقال بعض الحكماء لا تقطع أخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق أن تحتمل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن عون أن غلاما هاشميا عربد على قوم نار اد عمه أن يسىء به فقال يا عم انى قد أسات وليس معى عقلى فلا تسىء بى ومعك عقلك وقال أبو نواس

لم اؤاخذك اذا جنيت لانی　　واثق منك بالاخاء الصحيح

فجميل العدو خير جميل　　وقبيح الصديق غير قبيح

فان تشبه خطؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون ملوما ولا يلوم بالظن فيصير مذموما ولذلك قيل التثبت نصف العفو. وقال بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له وقال بعض شعراء هذيل

فبعض الامر تصلحه ببعض　　فان الغث يحمله الثمين

ولا تعجل بظنك قبل خبر　　فعند الخبر تنقطع الظنون

ترى بين الرجال العين فضلا　　وفيما اضمر والفضل المبين

كلون الماء مشتبها وليست　　تخبر عن مذاقته العيون

والثانی ان يعتمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيا ته ولا يخلو فيما اتاه من أربع احوال. فالحال الاولى ان يكون موتورا قد قابل على وتره وكافا على مساءته فاللائمة على من وتره عائدة والى البادئ بها راجعة لأن المكافئ اعذر ان كان الصفح اجمل ولذلك قال النبی صلى الله عليه وسلم اياكم والمشاورة فانها تميت الغبرة وتحيي الغرة وقال بعض الحكماء من فعل ما شاء لقی مالم يشا وقال بعض الادباء من نالته اساءتك همته مساءتك وقال بعض البلغاء من اولع بقبيح المعاملة اوجع بقبيح المقابلة. وقال صالح بن عبد القدوس اذا وترت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

ان العدو وان أبدى مسالمة　　اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

والاغضاء عن هذا اوجب وان لم تكن المكافاة ذنبا لانه قد رأى عقبى اساءته فان واصل الشر واصلته المكافاة وقد قيل باعتزالك الشر يعتزلك وبحسن النصفة يكون المواصلون وقال بعض الحكماء من كنت له سببا لبلائه وجب عليك التلطف فی علاجه من دائه وقد قال أوس بن حجر

اذا كنت لم تعرض عن الجهل والخنا　　أصبت حليما اوأصابك جاهل

الحال الثانية ان يكون عدو قد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء انتهاز فرصة ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصصه فاذا ظفر بنائبة ساعدها واذا شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا أسلم والكف عنه متاركة اغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره وقد قالت الحكماء

لاتعرضن لعدوك في دولته فاذا زالت كفيت شره . وقال لقمان لابنه يا بنى كذب من
قال ان الشر بالشر يطفا فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفيء احداهما الاخرى
وانما يطفيء الخير الشر كما يطفيء الماء النار وقال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا ان
ترى عدوك يعصى الله فيك وقال بعض الحكماء بالسيرة العادلة يقهر المعادى وقال
البحترى وأقسم لا أجزيك بالشر مثله كفى بالذى جازيتنى لك جازيا
والحال الثالثة ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغراه لؤم الطبع على سوء
الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على اتيان الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن
المكروه فهذه الحالة أطم لان الاضرار بها أعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد
والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضارى فى سوارح
الغنم وكالنار المتاججة فى يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك روى
مكحول عن أبى امامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الناس كشجرة
ذات جنى ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت
منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يارسول الله وكيف المخرج قال اقرضهم من
عرضك ليوم فاقتك وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم صديق كل أحد الامن
ضره والجاهل اللئيم عدو كل أحد الامن نفعه وقال شر ما فى الكريم ان يمنعك خيره
وخير ما فى اللئيم ان يكف عنك شره وقال بعض البلغاء اعداؤك داؤك وفى البعد عنهم
شفاؤك وقال بعض البلغاء شرف الكريم تغافله عن اللئيم ووصى بعض الحكماء ابنه
فقال يابنى اذا سلم الناس منك فلا عليك ان لا تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان
النعمتان . وقال عبد المسيح بن نفيلة
الخير والشر مقرونان فى قرن فالخير متبع والشر محذور
والحال الرابعة ان يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا واخاقد استجد جفوة
وتنكرا فابدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة
الاعداء فهذا قد يعرض فى المودات المستقيمة كما تعرض الامراض فى الاجسام
السليمة فان عولجت اقلعت وان أهملت اسقمت ثم اتلفت ولذلك قالت الحكماء دواء
المودة كثرة التعاهد . وقال كشاجم

أقل ذا الود عثرته وقفه   على سنن الطريق المستقيمه
ولا تسرع بمعتبة اليه   فقد يهفو ونيته سليمه

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا نفروا اصلح واطراحهم اذا فسدوا أولى كاعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها أسلم فان شح بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديد له أجمل. وقد قال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة وقد قال بزرجمهر من تغير عليك فى مودته فدعه حيث كان قبل معرفته. وقال نصر بن احمد

صل من دنا وتناس من بعدا   لا تكرهن على الهوى احدا
قد أكثرت حواء اذ ولدت   فاذا جفا ولد فخذ ولدا

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه وضاقت خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل أخذ ولا الى العفو أخلد وقد علم ان نفسه قد تطغى عليه فترديه وان جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما أخص به واحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بادواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع ان من لم يحتمل بقى فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا أعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم أوصانى ربى بسبع الاخلاص فى السر والعلانية وان اعفو عمن ظلمنى واعطى من حرمنى واصل من قطعنى وان يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا ونظرى عبرة وقال لقمان لابنه يا بنى لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثانى يا بنى اتخذ ألف صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير وقيل للمهلب بن أبى صفرة ما تقول فى العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بايهما شئت وأنشد ثعلب

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد   يكفيك فى ادباره متعلقا
اذا أنت لم تترك اخاك وزلة   اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه فان من لم يعرف الداء لم يقف على الدواء كما قال المتنبى

فان الجرح ينغر بعد حين     اذا كان البناء على فساد

اذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من ان يكون لملل أو زلل فان كان الملل فودات الملول ظل الغمام وحلم النيام وقد قيل فى منثور الحكم لا تامنن لملول وان تحلى بالصلة وعلاجه ان يترك على ملله فيمل الجفاء كامل الاخاء وان كان لزلل لوحظت اسبابه فان كان لها مدخل فى التاويل وشبهة تؤول الى جميل حمله على اجمل تاويل وصرفه الى احسن جهة كالذى حكى عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر فقيل له فى ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذلك بثقته بنا . وأنشد بعض أهل الادب لمحمد بن داود الاصفهانى

وتزعم للواشين أنى فاسد     عليك وأنى لست فيما عاهدتنى
وما فسدت لى يعلم الله فية     عليك ولكن خنتنى فاتهمتنى
غدرت بعهدى عامدا وأخفتنى     فخفت ولو امنتنى لامنتنى

وان لم يكن لزلله فى التاويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب لتائب . ولا لوم على منيب ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجا الى ذل التحريف أو خجل التعنيف . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فانا كثرها مفاجر . وقال على رضى الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة . وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه لا يدعونك أمر قد تخلصت منه الى الدخول فى أمر لعلك لا تخلص منه وقال بعض الحكماء شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره . وقال بعض البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت اساءته قال بعض الحكماء الكريم من اوسع المغفرة اذا ضاقت بالذنب المعذره وقال بعض شعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب     وليس فى غير ما يرضيك لى ارب
وقد أسات فبالنعمى التى سلفت     الا مننت بعفو ماله سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره فيكون لئيم الظفر سيء المكافاة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغتر بمودته : وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه الى عذره . وقال بعض الشعراء

إقبل معاذير من ياتيك معتذرا     ان بر عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

وان ترك نفسه فى زلله ولم يتداركه بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته وانابته راعيت حاله فى المتاركة فستجده لا ينفك فيهما من أمور ثلاثة . أحدها أن يكون قد كف عن سيء عمله وأقلع عن سالف زلله فالكف احدى النوبتين والاقلاع أحد العذرين فكن أنت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه المحسن على المسيء امير والثانى أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض احد البرأين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه فعول به على صلاح شطره الاخر واياك وارجاءه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافى يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه مالم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث ان يتجاوز مع الاوقات فيزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال فان أمكن استدراكه وتأتى استصلاحه وذلك باستنزاله عنه ان علا وبارغابه ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فاخر الداء العياء الكى ومن بلغت به الاعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع . وقد قيل من سل سيف البغى أغمده فى رأسه فهذا شرط واما المسامحة فى الحقوق فلان الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن اراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح او طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة لما استقر فى الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر حب من ياسرها وسامحها فكان اليق لامور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له موداتهم . وقال بعض الادباء اذا اخذت عفو القلوب زكا ريعك وان استقصيت اكديت والمسامحة نوعان فى عقود وحقوق فاما العقود فهو ان يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة مامون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها : وقال صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على شيء يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يارسول الله قال التغابن للضعيف : وحكى ابن عون ان عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصرى ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى

التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم و نصف فقال انى اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما ومن الناس من يرى ان المساهلة فى العقود عجز وان الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس فى الحقير وان جاد بالجليل الكثير كالذى حكى عن عبدالله بن جعفر وقد ماكس فى درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له فى ذلك فقال ذلك مالى اجود به وهذا عقلى بخلت به . وهذا انما يسوغ من اهل المروءة فى دفع ما يخادعهم به الادنياء ويغابنهم به الاشحاء وهكذا كانت حال عبدالله بن جعفر فأما ما كسة الاستنزال والاستسماح فكلا لانه مناف للكرم ومباين للمروءة واما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين احدهما فى الاحوال والثانى فى الاموال فاما المسامحة فى الاحوال فهى اطراح المنازعه فى الرتب وترك المنافسة فى التقدم فان مشاحة النفوس فيها اعظم والعناد عليها اكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع اخذه بأفضل الاخلاق واستعماله لاحسن الاداب اوقع فى النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو ازيد فى رتبته وابلغ فى تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لاخشن الاخلاق واستعماله لاهجن الاداب انكى فى النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو اخفض للمرتبة وامنع من التقدم . حكى ان فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن دؤاد فقال يا بنى ان الاداب ميراث الاشراف ولست ارى عندك من سلفك ارثا. واما المسامحة فى الاموال فتتنوع ثلاثة انواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انكار لعسرة وهى مع اختلاف اسبابها تفضل ماثور وتالف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده و ينفذ فيه تصرفه كان أولى ان يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه وقد تصل المسامحة فى الحقوق الى من لا يقبل البر ويابى الصلة فيكون احسن موقعا وازكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدى لان السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجترىء على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار اسير حقك ورهين دينك يجد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الاجر وقال محمود الوراق رحمه الله

المرء بعد الموت احدوثة يفنى وتبقى منه آثاره
فاحسن الحالات حال امرىء تطيب بعد الموت اخباره

فهذه حال المياسرة . واما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان احدهما ما اسداه جودا فى شكور والثانى ما تالف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت صنائعه فى الشاكرين واعرض عن تالف النافرين كان فردا مهجوا ارا وتابعا محقورا ولا مروءة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعنى الناس على شىء اردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا . وقال بعض الحكماء اقل ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل بها الى معصيته :وانشدت لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يجد به * وترك المال لعام جدبه * هان على الناس هوان كلبه

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى

يبقى الثناء وتذهب الاموال ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمدة الرجال وشكرهم الا الجواد بماله المفضال

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاقت به الحال عن اصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسة مواساة المسعف وليسعد بها اسعاد المتالف قال المتنبى * فليسعد النطق ان لم تسعد الحال *

وان كان لا يراها وان أجهدها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطى والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى ان ردصوتا لم يجد نفعا كما قال الشاعر

يجود بالوعد ولكنه يدهن من قارورة فارغه

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ماعدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول فى شروط الافضال ما أقنع . وأما الافضال والاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوائب واذا استكف السفيه واستدفع البذى صان عرضه وحمى نعمته وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما وقى به

المرء عرضه فهو صدقة وقالت عائشة رضي الله عنها ذبوا بأموالكم عن أحسابكم
وامتدح رجل الزهري فأعطاه قميصه فقال له رجل أتعطي على كلام الشيطان فقال من
ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من أراد بر الوالدين فليعط
الشعراء وهذا صحيح لان الشعر ساتر يستر به ما ضمن من مدح أو هجاء ومن أجل ذلك
قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا ولاستكفاف السفهاء بالافضال
شرطان أحدهما أن يخفيه حتى لا تنتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلوا إلى اجتذابه
بسبه وإلى ماله بثلبه والثاني أن يتطلب له في المجاملة وجها ويجعله في الافضال عليه
سببا لئلا يرى أنه على السفه واستدامة البذاء واعلم انك ما جبيت ملحوظ المحاسن
محفوظ المساوي . ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامي عنك
شفيق فكن أحسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكورا واجرك عند الله
مذخورا فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون أنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل
فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من
شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه
وتعالى أعلم (الفصل الثامن في آداب منثورة) اعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل
الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان
ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو أمكن ذلك لكان
الاول قد أغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتاخر تكلفها وانما حظ الاخير ان يتعانى
حفظ الشارد وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان
موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فان
اسعف بشيء فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام
الوقت وعرف أهله فان لاهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون
أوقع في النفوس وأسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على أوائله ومقدماته ويثبته على
أصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هي أوضح
مسلكا وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الاخير فيما يعانيه وكذلك القول
في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الاول عناء ضائعا وتكلفا

مستهجناو نرجو الله أن يمدنا بالتوفيق لتادية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكليف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطئ معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وإن أساء فقد استقذف وقد مضت أبواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما الأحب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان فى ماكله ومشربه فان الداعي إلى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما الحاجة فتدعو الى ماسد الجوع وسكن الظما وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ماحرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف اكثر ثوابا وأعظم أجرا اذليس فى ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واتيان القرب ومن اخسر نفسه ربحا موفورا أوحرمها أجرا مذخورا كان زهده فى الجير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه وسمعته وأما الشهوة فتتنوع نوعين شهوة فى الاكثار والزيادة وشهوة فى تناول الالوان اللذيذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه فى العقل والشرع لان تناول مازاد على الكفاية نهم معر وشره مضر. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال على رضى الله عنه ان كنت بطنا فعد نفسك زمنا وقال بعض البلغاء اقلل طعاما تحمد مناما وقال بعض الحكماء اكبر الدواء تقدير الغذاء وقال بعض الشعراء

فكم من لقمة منعت أخاها ... بلذة ساعة اكلات دهر

وكم من طالب يسعى لامر ... وفيه هلاكه لوكان يدرى

﴿وقال آخر﴾ كم دخلت اكلة حشاشره . فاخرجت روحه من الجسد

لابارك الله فى الطعام اذا ... كان هلاك النفوس فى المعد

ورب اكلة هاضت الآكل وحرمته ماكل روى ابو يزيد المدنى عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله لم يخلق وعاء ملئ شرا من بطن

(١) لفظ الحديث المشهور ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم اكلات

فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح وأما النوع الثانى وهو شهوة الاشياء الملذة ومنازعة النفوس الى طلب الانواع الشهية فمذاهب الناس فى تمكين النفس منها مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى وقهرها عن اتباع شهواتها أحرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر يطغى وأشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان اسير شهوات لا تنقضى وعبد هوى لا ينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل وانشدت لابى الفتح البستى

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... لتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فانت بالنفس لا بالجسم انسان

وللحذر من هذه الحال ما حكى أن أبا حازم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول موعدك الجنة وقال آخر تمكين النفس من لذاتها أولى واعطاؤها ما اشتهت من المباحات اخرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر عنها ذلة المقهور وبلادة المجبور ولا تقصر عن درك ولا تعصى فى نهضة ولا تكل عن استعانة وقال آخرون بل توسط الامرين أولى لان فى أعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفى منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفى تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمرى أشبه المذاهب بالسلام لان التوسط فى الامور أحمد واذ قد مضى الكلام فى الماكول والمشروب فينبغى أن يتبع بذكر الملبوس

اعلم أن الحاجة وان كانت فى الماكول والمشروب أدعى فهى الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما فى الملبوس من حفظ الجسد ودفع الاذى وستر العورة وحصول الزينة . قال الله تعالى يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فمعنى قوله أنزلنا عليكم لباسا أى خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يوارى سوآتكم أى يستر عوراتكم وسميت العورة سوأة لانه يسوء صاحبها

---

يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه رواه احمد وابن ماجه والترمذى عن المقدام بن معديكرب قال الحاكم صحيح وانظر المناوى على الجامع

كتبه مصححه

انكشافهامن جسده وقوله وريشافيه أربعة تاويلات أحدها انه المال وهو قول مجاهد والثانى انه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث انه المعاش وهو قول معبد الجهنى والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوى فيه ستة تاويلات . أحدها ان لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدى . والثانى انه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث انه السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضى الله عنه. والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير . والخامس انه الحياء وهذا قول معبد الجهنى والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ذلك خير فيه تاويلان أحدهما أن ذلك راجع الى جميع ماتقدم من قوله قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أى ذلك الذى ذكرته خير كله والثانى ان ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام ان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدى فلما وصف الله تعالى حال اللباس واخرجه مخرج الامتنان علم انه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك ففى اللباس ثلاثة اشياء أحدها دفع الاذى والثانى ستر العورة. والثالث الجمال والزينة .فامادفع الاذى به فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم باسكم فاخبر بحالها ولم يامر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعنى بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كن وهو الموضع الذى يستكن فيه ويعنى بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسرابيل تقيكم باسكم الدروع التى تقى الباس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال أكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء والجواب الثانى انه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر اذ كان معلوما أن السرابيل التى تقى الحر أيضا تقى البرد ومن اتخذ من الجبال اكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع

فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما فى ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه ألا ترى آدم وحواء لما اكلا من الشجرة التى نهيا عنها بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبها بعقولهما الستر مارأياه مستقبحا من سوآتهما لانهما لم يكونا قد كلفا ستر مالم يبدو لا لهما كلفاه بعد ان بدت لهما وقبل سترها وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذى لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرعى فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا وقد كانت قريش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك ابلغ فى القربة وانما القرب ما استحسنت فى العقل حتى انزل الله تعالى يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعنى بقوله خذوا زينتكم الثياب التى تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على انفسكم من اللحم والودك وفى قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان • احدهما لا تسرفوا فى التحريم وهذا قول السدى • والثانى لا تأكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول ابن زيد فأوجب بهذه الآية ستر العورة بعد ان لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على ان سترها وجب بالشرع دون العقل • واما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير ان يوجبه عقل او شرع وفى هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير • والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين احدهما فى صفة الملبوس وكيفيته والثانى فى جنسه وقيمته فاما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين احدهما عرف البلاد فان لاهل المشرق زيا مالوفا ولاهل المغرب زيا مالوفا وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات فى اللباس مختلفة والثانى عرف الاجناس فان للاجناد زيا مالوفا وللتجار زيا مالوفا وكذلك لمن سواها من الاجناس المختلفة عادات فى اللباس وانما اختلفت عادات الناس فى اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل أحد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا ولذلك قيل العرى الفادح خير من الزى الفاضح وأما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين أحدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر فى الزى قدراً وللمعسر دونه والثانى بالمنزلة والحال فان لذى المنزلة الرفيعة فى الزى قدرا وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل أحوالهم فيصير وابه

متميز ين فان عدل الموسر الى زى المعسر كان شحا و بخلا و ان عدل الرفيع الى زى الدنئ كان مهانة و ذلا و ان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبذيرا و سرفا و ان عدل الدنئ الى زى الرفيع كان جهلا و حمقا و لزوم العرف المعهود و اعتبار الحد المقصود أدل على العقل و أمنع من الذم و لذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اياكم لبستين لبسة مشهورة و لبسة محقورة. و قال بعض الحكماء البس من الثياب مالا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك الحكماء • وقال بعض الشعراء

ان العيون رمتك اذ فاجأتها　　　وعليك من شهر الثياب لباس

أما الطعام فكل لنفسك ماتشا　　　واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

واعلم ان المروءة أن يكون الانسان معتدل الحال فى مراعاة لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها و ترك تفقدها مهانة و ذل و كثرة مراعاتها و صرف الهمة الى العناية بها دناءة و نقص و ربما توهم بعض من خلا من فضل و عرى عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة و السيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين و خروجه عن جما العوام المسترذلين و خفى عليه أنه اذا تعدى طوره و تجاوز قدره كان أقبح لذكره و أبعث على ذمه فكان كما قال المتنبي

لا يعجبن مضيما حسن بزته　　　وهل يروق دفينا جودة الكفن

وحكى المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرث ثيابه و اذا ضاق لبس أحسنها فقيل له فى ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود و اذا ضقت فبالهيئة • وقد أتى ابن الرومى بابلغ من هذا المعنى فى شعره فقال

وما الحلى الا زينة لنقيصة　　　يتمم من حسن اذا الحسن قصرا

فاما اذا كان الجمال موافرا　　　كحسنك لم يحتج الى أن يزورا

ولذلك قالت الحكماء ليست العزة فى حسن البزة • وقال بعض الشعراء

وترى سفيه القوم يدنس عرضه　　　سفها و يمسح نعله وشراكها

واذا اشتد كلفه بمراعاته لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه و صار الملبوس عنده أنفس وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل فى منثور الحكم البس من الثياب مايخدمك ولا يستخدمك. وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية أراك لاتبالى مالبست فقال ألبس ثوبا أقى به نفسى احب الى من ثوب اقيه بنفسى فكما أنه لا يكون شديد الكلف بها

فكذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن عائشة ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال مامالك قال من كل المال قد آتانى الله فقال ان الله تعالى يحب اذا انعم على امرئ نعمة ان ينظر الى اثرها عليه • وقد قيل المروءة الظاهره فى الثياب الطاهره وهكذا القول فى غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم فصاروا اسببا لمقته وطريقا الى ذمه لكن يكفيهم عن سيئ الاخلاق ويأخذهم باحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر

سهل الفناء اذا امررت ببابه　　طلق اليدين مؤدب الخدام

وليكن فى تفقداحوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون مبتذله. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ( ادهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم واحسنوا الى مماليككم فانه اكبت لعدوكم ) وليتوسط فيهم ما بين حالتى اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم • حكى ان الموبذ سمع ضحك الخدام فى مجلس انوشروان فقال اما تمنع هؤلاء الغلمان فقال انوشروان انما بهم يهابنا اعداؤنا وقال ابو تمام الطائى

حشم الصديق عيونهم بحاثة　　لصديقه عن صدقه ونفاقه

فلينظرن المرء من غلمانه　　فهم خلائفه على اخلاقه

واعلم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياها كلت وحالة تصرف ان ارحتها فيها تخلت فالاولى بالانسان تقدير حاليه حال نومه ودعته وحال تصرفه ويقظته فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة أحدهما وتغير زمانهما فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (نومة الضحى معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منساة للحاجة) وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما النوم ثلاثة نوم خرق وهى الصبحة ونوم خلق وهى القائلة ونوم حمق وهى العشى وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشى حمق . وقيل فى منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا اعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها • وحكى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائما فقال ياأبت أتنام والناس بالباب فقال يابنى نفسى

مطيتي وا كره أن أتعبها فلا تقوم بي وينبغي أن يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استعياب المهم فكيف به أن تجاوز الى ماليس بمهم هل لا يكون الا

كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض اخرى جناحا

ثم عليه ان يتصفح في ليله ما صدر من افعال نهاره فان الليل اخطر للخاطر واجمع للفكر فان كان محمودا امضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد افعاله لا تنفك من اربعة احوال • اما ان يكون قد اصاب فيها الغرض المقصود بها او يكون قد اخطأ فيها فوضعها في غير موضعها او يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة وينتهز به استدراك الخطا وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح احوال نفسه فكذا يجب ان يتصفح احوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها اسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره او اعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح افعال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها • وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ( السعيد من وعظ بغيره ) وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة * وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وانشدني بعض اهل العلم لطاهر بن الحسين

اذا اعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمات * اذا جئتها حاجب يحجبك

فاما ما يرومه من اعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه اغلب من الاياس منه وحمدت العاقبة فيه سلكه من اسهل مطالبه والطف جهاته وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس اغلب عليه من الرجاء مع شدة التغرير ودناءة الامر المطلوب فليحذر ان يكون له متعرضا • فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (اذا هممت بامر ففكر في عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه) وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز وقال بعض الشعراء

فاياك والامر الذى ان توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفى كل وقت من أوقات دهره عملا فان تخلق فى كبره باخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو اصغر وحقره من هو اقل واحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يمسه هرم تخرى على رأسه العصافير

فكن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لا عيش لممقوت ولا راحة لمعاد وانشد بعض اهل الادب لبعضهم

اذا اجتمع الناس فى واحد وخالفهم فى الرضا واحد
فقد دل اجماعهم دونه على عقله انه فاسد

واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك واظهار عذرك فيصير عدوك احظى منك فى زجر نفسه بافكارك ومجاهرتك من نفسك التى هى اخص بك لاغرائك لها باعذارك ومساءتك فحسبك سوء رجل ينفع عدوه ويضر نفسه • وقال بعض الحكماء اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك. وقال بعض البلغاء من اصلح نفسه ارغم انف اعاديه ومن اعمل جده بلغ كنه امانيه . وقال بعض الادباء من عرف معابه فلا يلم من عابه وانشدنى ابو ثابت النحوى لبعض الشعراء

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه ولو بان عيب من اخيه لابصرا
ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه لامسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب ايها الانسان نفسك بافتكار عيوبك وانفعها كنفعك لعدوك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ اعاننا الله واياك على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وحسبنا الله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى

## فهرست كتاب أدب الدنيا والدين لابى الحسن البصرى الماوردى

صحيفة



( تمت )